الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٤١ — ١٦ مارس سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 141.

Lundi-16-3-1936

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ١٤١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٥٤ — ١٦ مارس سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العــــدد

رعاية الفـــلاح

واجب قومى

أشارت الرسالة فى عددها الماضى إلى المحاضرة القيمة التى ألقاها نزيل مصر ، المستر جون نيتل الكاتب السويسرى الكبير ، عن تعليم الفلاحين ووجوب الاهتمام بثقافتهم القروية والصحية ، فذكرتنا هذه المحاضرة بمسألة لا تزال تثير فى نفوسنا شجناً ، هى مسألة الفلاح المصرى بوجه عام

أجل إن مسألة الفلاح المصرى مسألة تجدر بعناية كل مصرى يقدر الدور الخطير الذى يضطلع به الفلاح فى حياة هذه البلاد ؛ فالفلاح عماد الإنتاج القومى ، وجهوده عصب الثروة المصرية العامة ، وهو منبع الذكاء المصرى العامل ؛ يؤدى للخزينة العامة من دخله ما لا يؤديه أى مصرى آخر من ذوى المناصب أو المهن أو المال

ومع ذلك فالفلاح المصرى أقل أبناء الأمة حظاً من عناية أولى الأمر ، بل يكاد يكون منهم نسياً منسياً ؛ فقلما يفسح له

مجال فى المشاريع والمرافق العامة ، وقلما تقدر حقوقه ومصالحه قدرها الحقيقى ؛ وبينما نرى جميع الطبقات والطوائف من الموظفين وذوى المهن والطلبة والعمال ، بل وذوى المال ، كلا تدأب على مطالبة الحكومة وأولى الأمر بتحقيق ما تنشد من الحقوق والمزايا ، إذا بالفلاح يلزم الصمت والسكينة ، ويرقب مصيره قانعاً بالأمل ، راضياً بحكم القدر ، معتمداً على الله ثم على نفسه ودأبه المتواصل

بل نلاحظ مع الأسف والألم أن أصوات قادتنا ومصلحينا ترتفع فى كل وقت مطالبة بتحقيق مختلف المشاريع الإصلاحية العامة ، ولكن قلما يرتفع منها صوت من أجل الفلاح والعناية بانتشاله من ذلك المنحدر السحيق الذى قضى عليه أن يعيش فيه ؛ وإذاً فمما يثير الشكر والعرفان أن يرتفع بيننا صوت إنسانى كصوت ضيفنا المستر نيتل ، مطالباً للفلاح بما نقصر نحن فى المطالبة به من عناية هو خليق بها

يعيش الفلاح ، عصب الشعب المصرى وكثرته الساحقة ، فى نفس الحالة التى يعيش عليها منذ آلاف السنين ، فى غمر من الجهل المطبق والأمراض الفتاكة ، تعوزه أبسط وسائل الصحة والنظافة ؛ ولا يكاد يخرج من كده ودأبه المتواصل بأكثر من القوت الضرورى ، بل لا نعرف فى بلد من البلاد المتمدنة طبقة اجتماعية ينحط منسوب العيش فيها إلى هذا الدرك الأسفل الذى تنحط اليه معيشة الفلاح المصرى

ويؤدى الفلاح إلى خزينة الدولة نحو خمسة ملايين جنيه ضريبة عقارية ، ويؤدى أكثر منها ضرائب أخرى مباشرة وغير مباشرة ، فهو بذلك من أكبر المساهمين فى تكوين الدخل العام ؛ ومع ذلك فهو لا يصيب من النفقات العامة قسطاً يذكر ، سواء فى التعليم أو الصحة أو المنشآت والمرافق العامة . صحيح أن الدولة تنفق الملايين على أعمال الرى والصرف التى ينتفع بها الفلاح ، ولكنها إنما تنفق فى الواقع على إدارة الثروة المصرية العامة وإحيائها ؛ ومن العدالة بل من مصلحة البلاد الحيوية أن يحظى الفلاح بنصيب حسن من الإصلاحات الإجتماعية التى ترمى إلى رفع مستواه الصحى والعقلى ، ففى تقدم صحة الفلاح وتقدم ثقافته ثروة حقيقية للبلاد ، وزيادة فى قواها المنتجة الإقتصادية والإجتماعية

وليس الفلاح بحاجة إلى التدليل على قدره وأهميته فى حياة البلاد ؛ فهو يعمل متوارياً فى صمت ، ولكن شرايين الحياة المصرية كلها تمت بصلة وثيقة إلى عمله وإنتاجه ؛ وها هو ذا المعرض الزراعى الصناعى القائم الآن أسطع دليل حى على ما لهذا الفلاح المتواضع من جليل القدر فى الإنتاج العام ، وما يستطيع أن يقوم به من المعجزات الزراعية والصناعية إذا تعهده ولاة الأمر بالعناية الرفيقة والإرشاد المستنير

إن الفلاح مستودع الذكاء المصرى ، وأبناء الفلاحين هم صفوة القادة والزعماء وأكابر رجال الدولة والحكومة ، فكيف يعدم الفلاح بين أبنائه أنصاراً يطالبون بحقوقه فى الرعاية العامة ، وبقسطه من العناية الصحية والثقافية ؟ لقد كانت صحة الفلاح وعقله وروحه وما زالت عصب مصر الزراعية والاقتصادية ، وقد كانت وستغدو عصب الدفاع عن مصر ؛ فاذا شاءت مصر أن تحافظ على قواها المنتجة ، وأن تشحذها وتضاعفها ، فعليها ألا تدخر وسعاً فى العناية بجسم الفلاح وعقله وروحه

وإذا كنا نستطيع أن نسجل لبعض الوزارات المصرية شيئاً من الفضل فى الاهتمام بأمر الفلاح ، ولا سيما فى تقرير التعليم الأولى ، وإنشاء بعض المستشفيات والمؤسسات الصحية ، وردم البرك ، وغيرها ، فانه لا يسعنا إلا أن نلاحظ أن هذه المشروعات تسير بخطى بطيئة جداً ، وأن ما تم منها لا يعدو بداية ضئيلة . ومن حق الفلاح ، وهو الذى يكون أغلبية الأمة الساحقة ، ويساهم بأكبر قسط فى إنتاجها الحيوى ، ويتحمل معظم الأعباء والتكاليف العامة ، أن يفوز من ولاة الأمر ، ومن مشاريع الاصلاح العامة بأوفى نصيب

(***)

ولود وعقيم

للأستاذ أحمد أمين

ركبتُ من أول محطة لترام مصر القديمة وهى كهلال الشك ، جلد على عظم ، وعلى يديها طفل قد جلل بالبياض ، وعصبت عيناه ، وغطى رأسه ووجهه بشاشة زرقاء

وركب فى المحطة التالية سيدة نصَف ، أطيب شطريها الذى ذهب ، ممتلئة البدن ، سمينة الضواحى ، فحيت الأولى ، وتحادثتا والنساء سريعات التعارف ، تراهن فى طرفة عين يتحدثن إلى من لم يعرفن قبل فى أدق الأمور ، وأعمق الأسرار ، حتى كأنهن صديقات العمر ، ورفيقات الصبى ؛ فهن يتحدثن بعد دقيقة فى السعادة والشقاء ، وأوصاف الأزواج وعيوبهم ، والحموات ومصائبهن ومضايقتهن ، والدخل والخرج ؛ وقد ينتقلن إلى ما هو أدق من ذلك وأصعب ، مما لا يستطيع الرجال أن يتكلموا فى بعضه إلا بعد عمر طويل ، وصداقة متينة ، ومشاركة فى السراء والضراء

وبعد لحظة صرخ الطفل وأمعن فى الصراخ ، تحاول أن ترضعه ليسكت فلا يسكت ، وتنيمه فلا ينام ، وتتبع معه كل الأساليب التى تعلمتها فى اسكات الأطفال فلا تنجح ، وأخيراً تدعو عليه بالموت فلا يستجاب لها

— الثانية — ما له ؟

— الأولى — رمدت عيناه من أيام ثلاثة فشر بى المر ، وفى الليلة الماضية لم أذق طعم النوم ، وأنا طول الليل واقفة على رجلى أذرع الحجرة من أولها إلى آخرها ومن آخرها إلى أولها ، وكلما هدأ وبدأ النوم ذهبت إلى السرير لأنيمه وأنام فيصرخ ويكرر النغمة عينها ويمثل الدور نفسه إلى الصباح ، حتى دار رأسى ، ومللت الحياة ، وتمنيت الموت ، ولم أر للحياة طعماً مذ رأيت الأولاد ، وها أنا ذاهبة إلى طبيب العيون

ألمعك أولاد أخر ؟

نعم — مع خمسة وهذا سادسهم ؛ وقد حاولت بكل الوسائل أن أمنع الحمل بعد أول ولد ففشلت وفشلت . ومرة حاولت أن أتخلص من جنين فكدت أتخلص من نفسى وبقى الجنين . ومرة أصبت بنزيف شديد فعرضت نفسى على طبيب فقال إنه اجهاض ، وليس من أمل كبير فى بقاء الجنين ؛ ثم أمرنى أن ألتزم سريرى ولا أتحرك ، وأنام على ظهرى دائماً ، وكتب لى دواء يمنع النزيف . فامتنعت من شرب الدواء ، وأكثرت الحركة ، وعملت كل شىء عكس ما نصح الطبيب رغبة فى الاجهاض ، ثم مع هذا كله ارتفع الدم وثبت الجنين . وهذا هو الذى على يدى

و « اسم الله عليهم » كلهم ذكور ؟

لا والله ! أربعة ذكور وبنتان ، وكلهم فى الهم سواء ، وكل يوم نوع جديد من أنواع العذاب . فى آخر السنة نضع يدنا على قلبنا عند الامتحان ؛ وتظهر النتيجة ، فهذا نجح ، وهذا سقط بلا ملحق ، وهذا له ملحق ؛ وتمضى الأجازة فى عناء ! وتبتدئ السنة ، فمن نجح فى الشهادة الابتدائية ظهر متأخر الترتيب فلا نجد له مدرسة أميرية تقبله ؛ والشهادة فى يد ، والمصاريف فى يد ، والمدرسة فى رفض ! ثم هذا صحيح وهذا مريض ، وهذا ذاكر وهذا لم يذاكر . ولا تسألى عن وقت ذهابهم إلى المدرسة ! هذا يبحث عن جزمته فلا يجدها ، وهذا عن طربوشه فلا يجده ، ونرى فرد جورب فى حجرة وفرداً آخر فى حجرة أخرى ، فلا يكادون يذهبون إلا وقد بلغت الروح الحلقوم . وعند مجيئهم من المدرسة هذا يغضب على الأكل وهذا يرضى ، وهذا ينازع ذاك ، ولا ينقذنا من كل هذا إلا نومهم . ثم هذا الشهر شهر أقساط المصاريف ، وهذا شهر كسوة الصيف ، وهذا شهر كسوة الشتاء ، وماهية الزوج لا تكفى هذا وذاك ، والعيش كله عناء فى عناء . وأنت ؟ أليس عندك أولاد ؟

كان منظراً غريباً ، فقد طفرت الدمعة فجأة من عين السيدة الثانية ، فلما أخرجت منديلها ومسحت دمعتها قالت : أبى الله أن يرزقنى فى حياتى ولداً ، وطالما دعوته وسألته ! وحججت مرة ، وكان أكبر همى من حجى أن أقف فى أشرف بقعة وأسأل

الله أن ... بى ابناً أو بنتاً ! وليكن الابن ذكياً أو غبياً ، ولتكن البنت جميلة أو دميمة ؛ فأنا راضية بأى مولود على كل حال ، ولكنه — سبحانه وتعالى — لم يفعل ، وفى القرآن الكريم : « يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما » فقد شاء أن يجعلنى من الصنف الأخير — لتمنيت أن يكون لى أولاد ، وأتحمل فيهم أضعاف ما ذكرتِ من عناء . ثم أراهنك أنى أكون سعيدة مغتبطة لا أشكو ولا أتألم — لقد طرقت كل الأبواب لذلك فلم أنجح ، ذهبت إلى الأطباء فعملوا لى عملية ، واحتملت فى سبيلها كل الآلام ؛ وذهبت إلى المشايخ فرقَوا وعزّموا ؛ وذهبت إلى الشيخات «فخضرن» وبخرن و « وصفن » ؛ وقالوا تخافين ؛ نخفت ونزلت القبر ، وركبت وابور « لونابارك » ؛ وقالوا وقالوا ، وفعلت وفعلت ، فذهب ذلك كله هباء ، ورزقنى الله مالاً كثيراً استطعت أن أفعل به كل ما وصفوا حتى السفر إلى أوربا واستشارة أطبائها ، ولكن إذا أبى الله فماذا يفعل العبد ؟

لم يبق لى من ذلك كله إلا التلهف على الولد والحسرة الدائمة ؛ وكل شىء حولى يذكرنى بالأولاد فيثير أشجانى وأحزانى . لقد رأيت فى حديقتى أشجار البرتقال والليمون تحمل أثمارها فقلت يا لله ! أتسبل نعمك على الأشجار فتحمل كل عام أثمارها ، وتضنّ على فلا أحمل مرة ثمرة ! وعندى قطة تحمل دائماً وتضع ما لا يعد من الأولاد ، وكلما حملت ذكرتُ حملى ، وكلما ولدت بكيت أولادى الذين لم يوجدوا بعدُ ؛ وأرى الفقيرات البائسات العاريات فى الشارع كل واحدة منهن تحمل فى بطنها ولداً ، وترضع ولداً ، وتجر ولداً ، فيتجمع الحزن فى قلبى ، وتنفجر منه عينى ؛ وأسمع «معارفى» وصواحبى ، هذه ولدت ، ثم هذه ولدت ، ثم هذه ولدت ، فأقول لم يبق عقيما إلا أنا ، ولم يتخصص للشقاء غيرى ! رزقنى الله مالاً ولم يرزقنى ولداً ، وليته رزقنى ولداً ولم يرزقنى مالاً ؛ ولو كان الولد يشرى بكل ما أملك لاشتريته وكنت سعيدة ؛ بل لو كان يشرى بعينىّ لاشتريته وكنت رابحة فى صفقتى . وما الدنيا وما المال ؟ وما الحياة بغير الولد ؟ لقد كنت فى أول أمرى أطلب الولد خشية أن يتزوج زوجى غيرى ، فلما أمنت جانبه ، واطمأننت من ناحيته ، طلبت الولد لأنه طبيعتى ولأنه حياتى بعدى ، ولأنه موطن انتساخ روحى ، ولأنى امرأة قد خلقت للأمومة . لقد أحسست بهذه الأمومة فى صغرى فعملت العرائس إرهاصاً لأمومتى ، ثم تزوجت تهيؤاً لهذه الأمومة ، فلما تقدمت فى السن ولم أجد الأمومة رأيتنى فقدت طبيعتى ، ورأيتنى فى الحياة مقدمة بلا نتيجة ، أو قبة بلا شيخ ، أو لوزة فارغة ، وأنا والعروس من الحلوى ، والعروس من القطن سواء ، كلنا لا يلد . ليس لى أمل فى السلوة إلا بالموت . فهو وحده بلسم الهموم ، ومقبرة الأحزان ! وهنا ختمت حديثها — كما بدأته — بالدموع

قالت الأولى : والله لو ذقتِ مرارة الأولاد ما تمنيتِهم ؛ ولو جربتِ سهر الليالى ما اشتقتهم ؛ ولكن أحب شىء إلى الانسان ما منع ؛ والقصر من بُعد أجمل منظراً من سكناه ؛ والخيال دائماً ألذ من الحقيقة . لقد كان مرة أكبر أولادى يبكى وهو رضيع ولا نعلم سبباً لبكائه ، ويبكى ويشتد فى البكاء حتى بلغ منا الهم مبلغه ، وإذا بزفة عريس تمر من تحت بيتنا ، فأضحكنى زوجى أبو الطفل إذ قال للعريس : « غُرّ » غداً تخلف « وترى » — ولو تمنيت الآن شيئاً لتمنيت أنى لم أكن تزوجت ، وإن تزوجت فلم أكن « خلفت » — أتبادلينى ؟ وضحكت

قالت الثانية وتأوهت : وكيف يمكن البدل ؟ إنما أريد أولاداً منى لا منك ، أريد كبدى تمشى على الأرض أربيها ، ولا أريد كبدك أنميها وأغذيها — وأنت أيضاً لا تعبرين عما فى نفسك تعبيراً صادقا ، فمن تهون عليه أولاده ؟ إنما ينفع البدل إن كان قدر لى الله أن أكون ولوداً وأن تكونى عقيما

قالت الأولى : أتريدين الحق يا أختى ؟ الدنيا كلها تعب فلا ولود فى راحة ، ولا عقيم فى راحة ، ولا متزوجة سعيدة ، ولا عزبة سعيدة .

ووصل الترام إلى المحطة فنزلتا ، هذه إلى طبيب ابنها وتلك لبعض شؤونها

قال صاحبى : ولكن كيف أمكنك أن تسمع هذا الحوار ؟

قلت : هذا سر الصنعة .

أحمد أمين

٤ – الدينار والدرهم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال أحمد بن مسكين : وأزِفَ ترحُّلى عن (بلخ) وتهيأتُ للخروج ، ولم يبق من مدة مقيلى بها إلا أيام يجيء فيها السبتُ الرابع . وكانت قد وقعت مُماراةٌ بينى وبين مفتى (بلخ) أبى إسحق ابراهيم بن يوسف الباهلى (١) تلميذ أبى يوسف صاحب الامام أبى حنيفة ، ويزعمون أنه شحيحٌ على المال وأنه يَتَغَلَّلُه من مُسْتَغَلَّات كثيرة (٢) ، فكأنما غَشِيَتْه غماماتى ، فهو لا يرى أن أتكلم فى الزهد ، ويحسب هذا الزهد تماوُتَ العبّاد وتَنَفُّضَ الأيدى من الدنيا وسوءَ المصاحبة لما يُنعم الله به على العبد ، وخذلانَ القوة فى البدن ، وما جرى هذا المجرى من تزوير الحياة بالأباطيل التى زعم أنها أباطيل الطاعات وما أقربها من أباطيل المعصية . ولم يكن هذا المفتى قد سمعنى ولا حضر مجلسى ، ولولا الذى لم يعرفه من ذلك لقد كان عرف

وجادلتُه فرأيته واهنَ الدليل ، ضعيفَ الحجة ، يُخَمِّنُ تخمين فقيه ، وينظر إلى الخفايا من حقائق النفوس نظر صاحب النصِّ إلى الظاهر ، كأن الحقيقة إذا ألقيت على الناس مضت نافذة كفتوى المفتى ... ويزعم أن الوعظ وعظُ الفقهاء ، يقولون هذا حرام فيكون حراماً لا يُقارفه أحد ، وهذا حلال فيكون حلالاً لا يتركه أحد ؛ وهو كان بعيداً عن حقيقة الوعظ ومداخله إلى النفس وسياسته فيها ، ولا يعرف أن الحقيقة كالأنثى إن لم تزن بزينتها لم تستهو أحدا ؛ وأن الموعظة إن لم تتأدَّ فى أسلوبها الحى كانت بالباطل أشبه ، وأنه لا يغير النفسَ إلا النفسُ التى فيها قوةُ التحويل والتغيير كنفوس الأنبياء ، ومن كان فى طريقة روحهم ، وأن هذه الصناعة إنما هى وضع نور البصيرة فى الكلام لا وضعُ القياس والحجة ، وأن الرجل الزاهد الصحيح الزهد ، إنما هو حياة تلبسها الحقيقة لتكون به شيئاً فى الحياة والعمل . لا شيئاً فى القول والتوهم ، فيكون إلهامها فيه كحرارة النار فى النار من واتاها أحسها

ولعمرى كم من فقيه يقول للناس هذا حرام ، فلا يزيد هذا الحرام إلا ظهوراً وانكشافاً ما دام لا ينطق إلا نطق الكتب ولا يحسن أن يصل بين النفس والشرع ، وقد خلا من القوة التى تجعله روحاً تتعلق الأرواحُ بها وتضمه بين الناس فى موضع يكون به فى اعتبارهم كأنه آتٍ من الجنة منذ قريب ، راجعٌ إليها بعد قريب

والفقيهُ الذى يتملق بالمال وشهوات النفس ولا يجعل همَّه إلا زيادة الرزق وحظ الدنيا — هو الفقيه الفاسدُ الصورة فى خيال الناس يُفهمهم أولَ شيء ألاَّ يفهموا عنه إذ حرصه فوق بصيرته ، وله فى النفوس رائحةُ الخبز وله معنى خمسٌ وخمس عشرة (١) ... وكأن دنياه وضعت فيه شيئاً فاسداً غريباً يفسد الحقيقة التى يتكلم بها ؛ ولست أدرى ما هو هذا الشيء ولكنى رأيت فقهاء يعظون ويتكلمون على الناس فى الحرام والحلال وفى نص كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ثم لم أجد لكلامهم نفعاً ولا رداً ، إذ يلهمون الناس بأرواحهم غير المعنى الذى يتكلمون فيه ؛ وتسخر الحقيقة منهم — على خطرهم وجلال شأنهم — بذات الأسلوب الذى تسخر به من لص يعظ لصاً آخر فيقول له لا تسرق . . .

* * *

قال ابن مسكين : فلما دار يوم السبت أقبل الناس على المسجد أفواجاً ، وكانوا قد تعالموا إزماعى الرحيل عن بلدهم — وجاء (لقمان الأمة) فى أشياعه وأصحابه ، وجاء أبو اسحق المفتى فى جماعته ؛ واستقر بى المجلس فنفذتُ الناسَ بنظرى فكأنهم نبات غطى الأرض ، فأذكرنى هذا شيخنا السرىَّ بنَ مُغلِّس السقَطى (٢) ، وكان قد لزم داره فى بغداد لا يخرج منها ولا يراه إلا من قصد إليه ، وهممتُ أن أجمل الموعظة فى شرح كلمته

(١) توفى مفتى بلخ هذا سنة ٢٣٩

(٢) المستغلات أصول الأموال وتغلل واستغل بمعنى

(١) يريد أنه فى هذه الدنيا (عملية حسابية ...) وفى أيام ضعفة الدين يكون الفقه استخراج الدراهم من النصوص . . .

(٢) السقط ردىء المتاع (روبابيكا) وبائعه السقطى . وهذا الامام العظيم كان أوحد أهل زمانه فى الورع وله كلام إلهى مشرق وقد توفى عن سن عالية فى سنة ٢٥٣ .

المشهورة : تصحُّ المحبة بين اثنين حتى يقولَ أحدهما للآخر : يا أنا . ومما نقلوا عنه من أنه قال مرة لبعض أصحابه : منذ ثلاثين سنة وأنا في الاستغفار من قولي (الحمد لله) . فقال صاحبه : وكيف ذلك ؟ قال : وقع ببغداد حريق فاستقبلني رجلٌ فقال : نجا حانوتك . فقلتُ الحمد لله ؛ فأنا نادم من ذلك الوقت على ما قلت إذ أردتُ لنفسي خيراً من الناس . قال ابن مسكين : ولكني أحببت أن أكلم الفتى ومالَ الفتى ؛ فحدثتهم حديث معرفتي بالسري أني سمعتُ يوماً غيلان الخياط يقول : إن السري كان اشترى كُرَّ لوز[1] بستين ديناراً وأثبته في رزنامجه[2] وكتب أمامه : ربحُه ثلاثة دنانير[3] ؛ فلم يلبث أن غلا السعر فبلغ تسعين ديناراً ؛ فأتاه الدلال الذي كان اشترى له فقال : أريد ذلك اللوز . قال الشيخ : خذه . قال : بكم ؟ فقال بثلاثة وستين ديناراً . وكان الدلال رجلاً صالحاً فقال للشيخ : إن اللوز قد صار الكُر بتسعين . قال السري : ولكني عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحلُّه ، فلست أبيع إلا بثلاثة وستين ديناراً . فقال الدلال : وأنا قد عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحله ألاّ أغشَّ مسلماً ، فلست أشتري منك إلا بتسعين ؛ فلا الدلال اشترى منه ولا السريُّ باعه

قال أحمد بن مسكين : فلما سمعت ذلك لم تكن لي همةٌ إلا أن ألقى الشيخ وأصحبه وآخذ عنه ، فلم أعرّج على شيء حتى كنت في المسجد الذي يصلي فيه فأجده في حلقته وعنده ممن كنت أعرفهم : عبدُ الله بن أحمد بن حنبل وإدريس الحداد وعلي بن سعيد الرازي ، وحوله خلق كثير وهو فيهم كالشجرة الخضراء بين الهشيم تملوه نَضْرةُ روحه وكأنما يُمدُّه بالنور عِرق من السماء فهو يتلألأ للعين ؛ ولا يملك الناظر إليه أن يحس في ذات نفسه أنه الأدنى من رؤيته في ذات نفسه أن هذا هو الانسان الأعلى

ورأيت على وجهه آلاماً تمسحه مسحةَ الأشواق لا مسحة الآلام ، فهي آثارُ ما يجده في روحه القوية ، لا كآلام الناس التي هي آثار الحرمان في أرواحهم الواهنة الضعيفة فلا تمسح وجوههم إلا مسحة الغم والكآبة . وما يخطىء النظر في تمييز آلام السماء على هذه الوجوه السعيدة من آلام الأرض في الوجوه الأخرى فإن الأولى تتندّى على روح الناظر بمثل الطلّ إذا قطَّره الفجر ، والأخرى تتشوّرُ كما تَهيج الغَبرةُ إذا ضربت الريحُ الأرض

كان الشيخ في وجود فوق وجودنا فلا تتلوّن له الأشياء ولا تعدو عنده ما هي في نفسها ، ولا يحمل الشيء له إلا معناه من حيث يصلح أو لا يصلح ، ومن حيث ينبغي أو لا ينبغي . فإنما تتلون الأشياء عند ما يضع الشيطانُ عينَه في عين الناظر إليها ؛ وإنما تزيد وتنقص في القلب عند ما يكون روح الشيطان في القلب ؛ وإنما يشتبه ما ينبغي وما لا ينبغي عند ما يأتي الشيء من جهتين : جهته من طبيعته هو ، وجهته من طبيعتنا نحن . وبهذا قد يجمع الانسان المال ثم لا يجد في المال معنى الغنى ، وقد تتفق أسباب النعيم ولا يكون منها إلا الذل . وكم من إنسان يجد وكأنه لم يجد إلا عكس ما كان يبغي ، وآخرَ لم يجد شيئاً ووجد بذلك راحته .

***

قال ابن مسكين : وما كان أشدَّ عجبي حين تكلم الشيخ فقد أخذ يجيب على ما في نفسي ولم أسأله كأن الذي في فكري قد انتقل إليه ؛ فروى الحديث : إذا عظَّمتْ أمتي الدينارَ والدرهم نُزع منها هيبة الاسلام ، وإذا تركوا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر حُرموا بَركةَ الوحي . ثم قال في تأويله :

إن ملك الوحي ينزل بالأمر والنهي ليخضع صولةَ الأرض بصولة السماء ، فإذا بقي الأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر بقي عملُ الوحي إلا أنه في صورة العقل ، وبقيت روحانية الدنيا إلا أنها في صورة النظام ، وكان مع كل خطأ تصحيحُه فيصبح الانسان بذلك تنفيذاً للشريعة بين آمرٍ مطاع ومأمور مطيع ، فيتعامل الناس على حالة تجعل بعضهم أستاذاً لبعض ، وشيئاً منهم تعديلاً لشيء ، وقوة سنداً لقوة ؛ فيقوم العزمُ في وجه التهاون ، والشدة في وجه التراخي ، والقدرة في وجه العجز . وبهذا يكونون شركاءَ متعاونين ، وتعود صفاتهم الانسانية وكأنها جيشٌ عامل يناصر بعضه بعضاً فتكون الحياة مفسرةً ما دامت معانيها السامية تأمر أمرها وتلهم إلهامها وما دامت ممثلة في الواجب النافذ على الكل

(١) الكر بضم الكاف مكيال عظيم يقدرون به في الحساب وهو أربعون أردبا مصريا (٢) أي دفتر حسابه (٣) خمسة في المائة

والناس أحرار متى حكمتهم هذه المعانى فليست حقيقة الحرية الانسانية إلا الخضوع للواجب الذى يحكم ، وبذلك لا بغيره يتصل ما بين الملك والسُّوقة وما بين الأغنياء والفقراء اتصالَ الرحمة فى كل شىء واتصالَ القسوة فى التأديب وحده . فبركة الوحى إنما هى جعل القوة الانسانية عملا شرعياً لا غير

أما تعظيم الأمة للدينار والدرهم فهو استعباد المعانى الحيوانية فى الناس بعضِها لبعض ، وتقطُّعُ ما بينهم من التشابك فى لُحْمة الانسانية ، وجعلُ الكبير فيهم كبيرا وإن صغرت معانيه والصغير فيهم صغيرا وإن كبر فى المعانى ؛ وبهذا تموج الحياة بعضها فى بعض ولا يستقيم الناسُ على رأى صحيح ، إذ يكون الصحيح والفاسد فى ملك الانسان لا فى عمل الانسان ، فيكثر الغنى مالا ويكثر الفقير عداوة كأن هذا قتل مالَ هذا وكأن أعمالا قتلت أعمالا ، وترجع الصفاتُ الانسانية متعادية وتباع الفضائل وتشترى ، ويزيد من يزيد ولكن فى القسوة ، وينقص من ينقص ولكن فى الحرية ، وتكون المنفعة الذاتية هى التى تأمر فى الجميع وتنهى ، ويدخل الكذبُ فى كل شىء حتى فى النظر إلى المال فيرى كل انسان كأنما درهمُه وديناره أكبر قيمة من دينار الآخر ودرهمه فاذا أعطى نقص فغش ، وإذا أخذ زاد فسرق ؛ وتصبح النفوس نفوساً تجارية تساوم قبل أن تنبعث لفضيلة وتُماكِسُ إذا دُعيت لأداء حق ، ويتعامل الناس فى الشرف على أصول من المعِدة لا من الروح ، فلا يقال حينئذ إن رغيفين أكثر من رغيف واحد كما هى طبيعة العدد ، بل يقال إن رغيفين أشرفُ من رغيف كما هى طبيعة النفاق

أما التجارة وهى التفسير الظاهر لمعانى النفوس فتصبح بين الغش والضرر والمماكرة ، وتكون يقظة التاجر من غفلة الشارى وتفسد الارادة فلا تحدث إلا آثارها الزائفة . وما التاجر فى الأمة القوية إلا أستاذ لتعليم الصدق والخلق فى الوضع المتقلب فكلمته كالرقم من العدد لا يحتمل أزيد ولا أنقص مما فيه ، ويُمتحَن بالدنيا والدرهم أشدَّ مما يمتحن العابد بصلاته وصيامه . وقد شهد رجل عند عمر بن الخطاب فى قضية فقال له عمر : ائتنى بمن يعرفك ، فأتاه برجل أثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا ، قال فكنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا . قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذى يستبين به ورعُ الرجل ؟ قال : لا

قال عمر : أظنك رأيته قائماً فى المسجد يُهَمْهِمُ بالقرآن يخفض رأسه طوراً ويرفعه أخرى . قال : نعم

قال : فاذهب فلست تعرفه

وإنما التاجر صورة من ثقة الناس بعضهم ببعض وإرادة الخير واعتقاد الصدق ، وهو فى كل ذلك مظهر توضع اليد عليه كما تجسُّ اليدُ مرض المريض وصحته

فاذا عظمت الأمة الدينار والدرهم فانما عظمت النفاق والطمع والكذب والعداوة والقسوة والاستعباد ؛ وبهذا تقيم الدنانير والدراهم حدوداً فاصلة بين أهلها ، حتى لتكون المسافة بين غنى وفقير كالمسافة بين بلدين قد تباعد ما بينهما . وإنما هيبة الاسلام فى العزة بالنفس لا بالمال ، وفى بذل الحياة لا فى الحرص عليها ، وفى أخلاق الروح لا فى أخلاق اليد ، وفى وضع حدود الفضائل بين الناس لا فى وضع حدود الدراهم ، وفى إزالة النقائص من الطباع لا فى إقامتها ، وفى تعاون صفات المؤمنين لا فى تعاديها ، وفى اعتبار الغنى ما يُعمل بالمال لا ما يجمع من المال ، وفى جعل أول الثروة العقل والارادة لا الذهب والفضة

هذا هو الاسلام الذى غلب الأمم ، لأنه قبل ذلك غلب النفس والطبيعة

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

عصر الخفاء

البارون فون أوفنباخ
داعية ومغامر ومشعوذ

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان القرن الثامن عشر عصر الخفاء فى أوربا ، تزدهر فيه الدعوات والحركات السرية ، ويزدهر فيه أقطاب الدعاة السريين ؛ ففى أوائله نرى حركة البناء الحر (الماسونية) تتغلغل فى أنحاء أوربا ، وتقوم طائفة أخرى من الحركات والجمعيات السرية ؛ وفى أواخره نرى طائفة من أقطاب المغامرين الذين يتشحون بأثواب الخفاء والشعوذة يجوبون أوربا من أقصاها إلى أقصاها ، ويثيرون الروع والدهشة أينما حلوا ؛ ولهؤلاء الدعاة المغامرين سير عجيبة تفيض بها سير القرن الثامن عشر ، وتبدو كأنها قصص مغرق ، بيد أنها ترجع فى الغالب إلى كثير من الحقيقة ، وكل ما هنالك أن هذه الحقيقة يكتنفها كثير من الغموض والخفاء يرجع إلى ظروف العصر والمجتمعات التى ظهر فيها أولئك الدعاة المغامرون

ومما يلاحظ أن معظم المغامرين والدعاة السريين الذين ظهروا فى هذه الفترة هم يهود أو ينتمون إلى أصل يهودى ، وأن معظم الحركات والدعوات السرية التى ازدهرت فيها ترجع أيضاً إلى أصل يهودى ، أو نلمس فيها على الأقل وحى الدعاية اليهودية ؛ وهذه الملاحظة ترجع فى الواقع إلى ظاهرة تاريخية أعم ، وهى أن اليهودية كانت منذ العصور الوسطى مستقى أو مبعثاً لكثير من الحركات والجمعيات السرية التى قامت فى أوربا ، ومعظمها يرمى إلى غايات هدم دينية أو اجتماعية ، تقصد بها النصرانية ومبادئها وعقائدها قبل كل شىء

وقد كانت « الكابالا » اليهودية منذ العصور الوسطى أكبر مصدر لهذه الدعوات والرموز السرية . والكابالا شهيرة فى تراث اليهودية الروحى والفلسفى ، وهى عبارة عن مزيج من الفلسفة والتعاليم الروحية ، والرموز السحرية ، يتوارثها أحبار اليهودية ودعاتها منذ أقدم العصور ، وأخص تعاليمها الروحية أن الله وهو الكائن المطلق الخالد ينفث من نفسه إلى عالم الأرواح النقية ، وأن روح الانسان تنتقل من جسم إلى جسم حتى تعود فى النهاية إلى الله وتفنى فيه ؛ ولكن الكابالا اشتهرت بالأخص برموزها السرية وتعاويذها السحرية ، وقد كانت هذه مدى العصور تراث الخفاء فى يد الدعاة والمشعوذين ، يستغلون به سذاجة الكافة ، ويتخذونه سلاحاً قوياً لبث دعواتهم وتحقيق غاياتهم فى مجتمعات مؤمنة يروعها السحر والخفاء على كر العصور

وقد بلغت هذه الدعوات والتعاليم السرية اليهودية ذروة القوة والذيوع فى القرن السابع عشر ؛ وكانت بولونيا ، وبالأخص مقاطعة بودوليا التى كانت يومئذ منزلا لطوائف كثيرة من اليهود ، مركزاً للدعوة الكابالية ؛ وكانت هذه الدعوة تتمخض من آن لآخر عن فورات دينية يتردد صداها فى المجتمع اليهودى كله . وفى أواسط القرن السابع عشر ظهر فى تركيا شابتاى زيبى ، وهو داعية يهودى زعم أنه المسيح المنتظر ، فأثار ظهوره ومزاعمه فتنة كبيرة فى المجتمع اليهودى ؛ ولم يكن « المسيح المنتظر » سوى داعية ماهر من دعاة « الكابالا » ؛ وفى أواسط القرن الثامن عشر ظهر فى بولونيا عدة متعاقبة من الدعاة الكاباليين ، أشهرهم اسرائيل البدولى الذى أسس طائفة « الحسديم » ؛ وكان اسرائيل بارعاً فى ضروب الشعوذة واستخدام الرموز والتعاويذ السحرية ، فلقيت دعوته صدى كبيراً ، والتف حوله كثير من اليهود الذين خرجوا على تعاليم « التلمود » وتقاليده

وفى ذلك الحين أيضاً ظهر داعية من أعظم دعاة الكابالا ، وأشدهم خفاء وغموضاً ، فأثارت شخصيته الغامضة ، وحياته العجيبة ، ومزاعمه الخارقة ، وبذخه الطائل أيما روعة ودهشة فى مجتمعات أوربا الوسطى . واسم هذا الداعية الغريب يعقوب فرنك ، وكل ما نعرف عن نشأته وحياته الأولى أنه ولد فى بولونيا ، وكان فى حداثته يشتغل بتقطير الخمور ؛ ثم تجول حيناً فى بلاد القرم وفى تركيا ، ودرس تعاليم « الكابالا » ورموزها دراسة عميقة ، واتصل بأنصار شابتاى زيبى ودعاهم إلى لوائه ، ثم عاد

إلى بودوليا منزل الحركة الكابالية ، وهنالك أسس فى سنة ١٧٥٥ طائفة جديدة تعرف بجماعة « الزوهاريين » نسبة إلى « زوهار » أو كتاب الضوء ، وهو من الكتب المبرزة الكابالية ؛ ولم يلبث أن ذاعت دعوته وقويت عصبته ؛ ونهض لمقاومته جماعة « التلموديين » الرجيين ، ونشبت بينهما خصومة قوية ، فالتجأ فرنك إلى حماية أسقف كامنيك وأفضى اليه بميوله النصرانية ، وأحرق التلمود علناً ؛ وعاونه الأسقف على مقاومة خصومه حيناً ولكنه لم يلبث أن توفى ، واشتد الأحبار اليهود فى مهاجمة فرنك ومطاردته ، وأوقعوا به لدى حكومة وارسو ، ولدى مبعوث البابا ، وصوروه للسلطات الدينية والمدنيـة يهودياً مرتداً ، ونصرانياً مماذقاً ، وأن دعايته خطر على العقائد المرعية ، فهبت السلطات لمقاومتـه ، وبدأت يد المطاردة تعمل لسحق « الزوهاريين » وتشريدهم

والواقع أن مذهب فرنك لم يكن يهودية خالصة ولا نصرانية خالصة ، بل كان مزيجاً غريباً من اليهودية والنصرانية والوثنية ؛ ولم تكن بولونيا مهداً خصباً لمثل هـذه الدعوات الجريئة ؛ فلم يمض بعيد حتى قبض على فرنك بتهمة الارتداد الكاذب ونشر الالحاد والكفر ، وزج إلى قلعة شنتشوف ، وبادر كثير من أنصاره بالفرار إلى تركيا ، واعتنق الكثلكة كثير ممن بقى منهم فى بولونيا ، ولكنهم بقوا يهوداً فى سرائرهم ، وقبض على عدد منهم ، وحكم على البعض بالأشغال الشاقة ، ولكن كثيرين منهم استطاعوا أن يتقوا بستار الكثلكة ويل المطاردة ؛ ولقى الذين هاجروا إلى تركيا عنتاً واضطهاداً من السلطات الدينية فى مولدافيا ، وانقض عليهم العامة ونهبوهم ، وتفرقوا فى كافة الأنحاء . أما يعقوب فرنك فلبث يرسف فى سجنه حتى سقطت قلعة شنتشوف فى أيدى الروس فى سنة ١٧٧٢ ، وعندئذ أطلق سراحه ؛ فتجول حيناً فى بولونيا وبوهميا ومورافيا متشحاً فى الظاهر بثوب الكثلكة ، وهو يجمع الأموال والرسوم الفادحة من أنصاره وأبناء جلدته ، ويثير الروع والاجلال بين الكافة بمظاهر بذخه ؛ وكان مذهب الزوهاريين قد ذاع فى المجتمعات اليهودية فى تلك الأنحاء ، وكانت تعاليمهم أكثر جنوحاً إلى النصرانية ، فهم ينكرون التلمود ، ويسلمون بالتثليث والحلول ، ولكن ينكرون أن المسيح وحده أهل للحلول ؛ وكان هذا المزيج بين المذاهب والتعاليم المختلفة ملاذ الدعاة فى كل عصر ، فهم يزعمون دائماً أنهم ينشئون مذهباً أو ديناً جديداً ، ولكنهم يعمدون دائماً إلى الاقتباس من المذاهب والأديان القائمة ، ويسبغون على مزيجهم نوعاً من الجدل الغامض للتمويه على العامة والبسطاء

على أن يعقوب فرنك غدا مذ قوضت دعائم طائفته رجلا آخر ، فهو لم يبق بعد داعية يتزعم مذهباً جديداً ؛ ولم يبق بعد اعتناق الكثلكة يهودياً ينفث دعايته إلى أبناء دينه ؛ بل غدا فى الواقع شخصية جديدة يحوطها خفاء من نوع جديد ؛ ذلك أنه ظهر فجأة فى المجتمع الرفيع ، يعيش فى بذخ شرقى طائل ، ويحيط نفسه بحاشية كبيرة فخمة ، ويدهش المجتمعات الرفيعة فى ألمانيا والنمسا بروعة مظاهره وفيض بذخه ؛ وما زالت حياة فرنك فى تلك الفترة لغزاً ، وما زال مصدر ثرائه المدهش سراً على التاريخ ؛ ومن ذلك الحين يعيش فرنك فى فينا وفى برون على مقربة منها ، تحيط به أروع مظاهر الفخامة والبذخ ، كما يحيط به أعمق الأسرار وأغرب المزاعم ؛ ولبث فرنك مدى حين يدهش البلاط النمسوى وكل مجتمع فينا الرفيع بشخصيته الخفية ، وحياته الفخمة الباذخة ؛ وكانت له ابنة حسناء تدعى « حوه » ، استطاعت أن تتقرب من الأمبراطورة ماريا تيريزيا ، وأن تنال لديها حظوة ونفوذاً ، وأن تمهد لأبيها كثيراً من السبل ؛ ولكن الريب الذى يلاحقه أينما حل كان يحيط دائماً بشخصيته ومحيطه ووسائله ومزاعمه ؛ ولم يلبث أن اضطر إلى مغادرة النمسا ليتقى شر الاتهام والمطاردة ، وعندئذ تحول إلى مدينة أوفنباخ بألمانيا على مقربة من فرانكفورت ، واستقر بها مع حاشيته الكبيرة ، وعاش هنالك بنفس البذخ الطائل الذى كان مثار الروع والدهشة والاعجاب أينما حل

وعاش فرنك فى أوفنباخ أعواماً طويلة ، وتسمى بالبارون فون أوفنباخ ، وهو لقب يغلب عليه فى كتب التاريخ والقصص ؛ وأثار بروعة بذخه ومظاهره طلعة المجتمع الألمانى ودهشته كما أثار دهشة المجتمع النمسوى من قبل . ويقدم إلينا المؤرخ الألمانى بيتر بير وصفاً روائياً شائقاً لحياة فرنك العجيبة وبذخه المدهش فيقول لنا : « كانت له حاشية من بضع مئين من الفتيان والفتيات اليهود ذوى الحسن الرائع ؛ وكان يذاع أن صناديق المال تنهمر عليه فى كل يوم ولا سيما من بولونيا ، وكان يخرج كل يوم فى

موكب حافل ليقيم شعائره في العراء ، في عربة تجرها جياد مطهمة ، ومن حوله عشرة أو اثنا عشر فارساً بروسياً في حلل حمراء خضراء موشاة بالذهب ، وقد شهروا الرماح ووضعوا في قلنسواتهم رموزاً من النسور أو الوعول أو أهلة وشموساً وأقماراً ؛ وكان الماء يصب دائماً حينما كان يقيم شعائره ؛ وكان يؤم الكنيسة في مثل هذا البذخ ، وهنالك يؤدي القداس بطريقة خاصة ، وفي خشوع خاص ؛ وكان أنصاره يعتقدون فيه الخلود ، بيد أنه توفي في سنة ١٧٩١ ؛ ودفن في بذخ يعدل بذخ حياته ، وسار وراء نعشه موكب من ثمانمائة ؛ بيد أن سر ثرائه وبذخه دفن معه في قبره ؛ وانحدرت أسرته بعد وفاته إلى حالة من البؤس تدنو إلى التسول ؛ وعبثاً حاولت أن تستدر عطف أنصاره أو صدقتهم ؛ ولم يمض سوى قليل حتى غمرها النسيان والعدم ، واضطرت لكي تعيش أن تزاول أعمال الحياة الفانية »(١)

هذه هي قصة يعقوب فرنك وقصة حياته العجيبة . قصة مغامر ومشعوذ بارع استطاع أن يستغل ظروف عصره ، وما كان يسود مجتمع عصره من إيمان وتعلق بالخوارق والأساطير . بيد أنه من الخطأ أن نقف عند هذه الصورة الظاهرة من حياته . ذلك أن حياة فرنك كانت سراً من الأسرار التي لا تنفذ إليها طلعة الكافة ، وكان وراء هذه الحياة الفخمة الباذخة ناحية أخرى يغمرها الخفاء المطبق . هل كان فرنك يعمل لنفسه وبوسائله الخاصة أم كان يعمل بوحي قوة خفية أخرى تمده بأسباب البذخ الطائل وتدفعه إلى المجتمع مزودا بتلك المظاهر الرائعة لكي يعمل على بث دعاية معينة وتحقيق أغراض معينة ؟ لقد كان العصر الذي ظهر فيه فرنك عصر الخفاء حقاً ، وكانت موجة من الخفاء والتعلق بالخوارق والمجهول تغمر مجتمعات أوروبا الرفيعة وتملك عليها تفكيرها وأهواءها ؛ وفي نفس الوقت الذي ظهر فيه فرنك مسلحاً بأسراره ومظاهره العجيبة ، ظهر يوسف بلسامو أو الكونت كاجليوسترو مسلحاً بمثل هذا الخفاء وأثار دهشة المجتمعات الرفيعة ولا سيما في فرنسا بمظاهره وأعماله العجيبة ومزاعمه الخارقة ؛ وظهر في نفس الوقت مغامر آخر من نفس الطراز وإن كان أقل روعة وتأثيراً ، وهو الكونت سان جرمان واقتفى أثر زميله في التذرع بالخوارق . ومما يلفت النظر أن الثلاثة كانوا يهوداً ؛ وقد كانت اليهودية يومئذ مبعث الحركات والدعوات السرية ، وكانت الكابالا اليهودية كما أسلفنا مستقى خصباً للدعاة السريين فيما يعرضون من ضروب الرموز والأساليب السحرية ، وكانت حركة البناء الحر (الماسونية) يومئذ تضطرم في جميع أوربا ؛ وقد أثبت البحث الحديث أن لحركة البناء الحر أغراضاً خفية غير الأغراض الانسانية التي تتظاهر بها ، وأنها تعمل لغاية ثورية شاملة هي سحق الأديان والمعتقدات القائمة كلها ، وادماج الانسانية كلها في نوع من التفكير الحر المطلق والمساواة الاجتماعية المطلقة . ويرى بعض الباحثين أن الثورة الفرنسية كانت مؤامرة « ماسونية » ونفثة من نفثات البناء الحر ، وأن محافل البناء الحر هي التي نظمت خططها وبرامجها الأولى ، بل يرى بعض الباحثين أن الثورة البلشفية الحديثة ليست بعيدة عن تأثير البناء الحر ، وأن ما ترمى إليه من إحداث ثورة عالمية يطابق نفسه الغاية التي يعمل لها البناء الحر ؛ وقد كان أولئك الدعاة المغامرون الذي خلبوا ألباب أوربا في القرن الثامن عشر يتصلون بمحافل البناء الحر اتصالاً وثيقاً وإن يكن خفياً . أفليس لنا أن نعتقد بعد ذلك أن يعقوب فرنك لم يكن مغامراً أفاقاً يعمل لنفسه ولمطامعه الشخصية ، وأنه بالعكس كان داعية خطيراً يبعث حركة خطيرة لها صلة بخطط البناء الحر وغاياته ؟ وأنه كان يستمد المال الوفير والنصح والحماية من قوة خفية أعظم ؟ هذا ما نرجح ، وهذا ما يؤيده خفاء حياته وخفاء وسائله ومزاعمه وغاياته ، واتشاحه بثوب الدعوة الدينية التي كانت على كر العصور ملاذاً لمختلف الدعوات والغايات .

محمد عبد الله عنان

(١) بيتر بير في كتابه : Geschichte der Juden

فلاسفة الاسلام

والتوفيق بين الفلسفة والدين

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

سيداتي ، سادتي !

أشكر قسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية على أن هيأ لي الفرصة للتحدث إليكم الليلة في موضوع جاف ودقيق ؛ ولست أدري هل دقته منشأ جفافه ، أم جفافه زاد في دقته وغرابته ؛ ومهما يكن فالذي أستطيع أن أؤكده لكم أنكم لستم بصدد موضوع من تلك الموضوعات الطريفة المسلية التي تمر بالمستمع في شوق ورغبة وهدوء وسكون ، وقد أعذر من أنذر ! على أن لي في سعة صدركم وعظيم انتباهكم ما يشجعني على القول برغم مايصادفني من صعوبات . وما فكرت في أن أخوض معكم غمار هذه الأحاديث إلا رغبة مني في أن أوجه النظر إلى شطر من الثقافة الاسلامية أهمله أهله وتغافل عنه ذووه . وأعني بهذا الشطر الدراسة العقلية والبحث النظري في الاسلام . للاسلام فلسفة انفردت بخصائصها ومميزاتها وأضحت ذات شخصية مستقلة . فليست مجرد الفلسفة الأرسطية مصوغة في عبارات عربية كما يزعم رينان ، ولا فلسفة مدرسة الاسكندرية منسوبة فقط إلى بعض رجال الاسلام كما يدعي دهيم [1] . كلا بل هي فلسفة ذات موضوع خاص ومشاكل معينة وطريقة في البحث جديدة إلى حد كبير . هذه الفلسفة مجهولة ومهملة إلى درجة لم تصل اليها فيما أعتقد أية فلسفة أخرى . فرجالها لايكادون يعرفون ، وكتبهم ليست أعظم حظاً منهم ؛ ولا يزال قدر منها مخطوطاً إلى اليوم دون أن يفكر أحد في طبعه ونشره . ولو لم يقيض الله لهذا التراث بعض المستشرقين لما عرف عنه شيء وبقي في طي الكتمان إلى الأبد . [2] وما أجدرنا أن نقوم نحن على إحياء مجدنا والاشادة بذكر رجالنا كي يتصل حاضرنا بماضينا ونؤسس نهضتنا على أسس متينة من القديم الحي والجديد النافع

قلت أيها السادة إن موضوعنا دقيق ، وعنوانه كاف للدلالة على ما فيه من أمور شائكة ومشاكل عويصة . فان الأبحاث الدينية في جملتها مثار اتهامات وتأويلات وشبه لا حصر لها . وقد ساد بلدنا في العشرين سنة الأخيرة روح اتهام خبيثة ترمي بالالحاد والزندقة والتمرد والكفر كل من حاول تفسير ظاهرة من الظواهر الدينية تفسيراً تاريخياً أو عقلياً . لذلك تحاشى كثير من الباحثين هذا الميدان وتجنبوه اتقاء لما فيه من شرر متطاير وعراك ونضال . غير أني أشعر بنسمة من نسمات التسامح الاسلامي القديم تهب علينا من جديد ، وألمح في صفوف قادة الرأي والفكر اتجاها نحو الحرية وسعة الصدر وطلاقة التفكير . ولا أدل على هذا من خمود تلك النعرة القديمة ، نعرة الأباحيين والمستمسكين واللادينيين والدينيين . ويغلب على ظني أنه لو كان تقدم الزمن عشر سنين بكتاب ككتاب « حياة محمد » مثلاً للدكتور هيكل لعد في صف المؤلفات المحاربة المطرودة . أما اليوم فانه مقروء ومرغوب فيه بشكل يدعو إلى الاعجاب والتقدير . وليس هناك شك في أن لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي يداً في هذه النزعة الصالحة والتسامح الجديد . وإذا كانت النفوس اليوم أكثر استعداداً لتفهم مسائل الدين في جو حر طليق فاني لا أرى غضاضة في أن أتحدث عن بعضها . على أني لست في هذا الحديث إلا الرسول الأمين والناقل الصادق لما قال به فلاسفتكم الأقدمون . فمهمتي أن أنقل إليكم آراء كبار فلاسفة الاسلام ، وأردد بينكم أصواتاً تقادم بها العهد ، وأبعث من تحت الرغام أشباحاً طال رقادها ، وأبين لكم كيف حاول الفارابي وابن سينا وابن رشد التوفيق بين الفلسفة والدين

***

الدين وحي الله ، ولغة السماء وغذاء القلوب ، ومصدر الأوامر والنواهي . فكيف نوفق بينه وبين الفلسفة التي هي صنع البشر ولغة الأرض ، ومجال الأخذ والرد والبحث والتمايل ؟ كيف نوفق بين الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية ، والأولى عمادها الالهام ، والثانية أساسها البرهان ؟ كيف نوفق بين السمعيات والعقليات ، بين المسلمات واليقينيات ؟ كيف نوفق بين أفكار

(1) Renan, Averroes, p. 88. — Duhem, Le systeme du Monde, IV, pp. 321 et snia

(٢) ابراهيم مدكور ، الفلسفة الاسلامية ودراستها (الرسالة) عدد ٩٣

العامة المبنية على البساطة والسهولة ، وآراء الخاصة الناتجة عن التفكير الزائد والتأمل العميق ؟ مهمة شاقة قطعاً ومحاولة يعز أن تكلل بالنجاح . ولكنها ضرورية لقوم عاشوا فى العالم الأسلامى واعتنقوا الاسلام ، وكانت دراستهم بل حياتهم كلها خاضعة للجو المحيط بهم ، ومتأثرة بمختلف العوامل والظروف التى استولت على عصرهم . فلم ير الفلاسفة المسلمون بداً من محاولة التوفيق بين معتقداتهم وأبحاثهم . وهذه المحاولة هى حجر الزاوية فى فلسفتهم وأخص خصائصها ، وبها تتميز من الفلسفة الأرسطية وتبدو فى ثوبها الفذ المستقل . ففى كل خطوة من خطاهم ، وفى كل بحث من أبحاثهم ، صوب هؤلاء الفلاسفة نحو هذا الغرض واتجهوا نحو هذه الغاية . وكان لجهودهم أثر يذكر فى انتشار الفلسفة ونفوذها إلى صميم الدراسات الاسلامية الأخرى . ويعد الفارابى أول من سلك سبيل هذا التوفيق وأظهره فى شكل مهذب منسق . ثم أتى من بعده ابن سينا فسار على سنته واهتدى بهديه ، ووسع طريقته وكمل ما فاته ، إلا أن محاولة التوفيق التى قام بها هذان الفيلسوفان لم ترق لدى الغزالى ، فشن عليها الغارة وأثار عليها حرباً شعواء ونقض أصولها وفروعها وأعمل معوله فى هدم بنائها الفخم وأركانها المتينة ؛ وكتابه تهافت الفلاسفة قائم على انتزاع أحجار هذا البناء الواحد بعد الآخر ، وإثبات أن الفلاسفة أساءوا إلى الفلسفة والدين معاً بمحاولتهم التوفيق بينهما . وقد جاء ابن رشد أخيراً مدافعاً عن أسلافه الفلاسفة ومبيناً ما فى حجج الغزالى من مغالطة وسفسطة . ولم يمنعه تعصبه الزائد لأرسطو وعنايته الكبيرة بالفلسفة القديمة من أن يقف على هذه المشكلة ثلاثة كتب هامة هى : تهافت التهافت فى الرد على الغزالى ، وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، ومناهج الأدلة فى عقائد الملة . ولا يعنينا كثيراً أن نعرف ما إذا كان هؤلاء الفلاسفة مخلصين فى عملهم أو غير مخلصين ، فهذه مسألة تتجاوز دائرة بحثنا وتتعلق بأشخاصهم وصلتهم بربهم . وما لنا نتتبع بواطن الناس وقد دلت ظواهرهم على حسن نيتهم ؟ ومن لنا بالوقوف على أمر هذه البواطن والله وحده هو الذى يتولاها ويدرك كنهها وخفاياها ؟ على أن البحث عن السرائر مقرون غالباً بالشك وإلصاق تهم بأشخاص لم يقم دليل من أقوالهم وأفعالهم على اتهامهم . فلندع هذا جانباً ، ولنقتنع بأن نقرر أن فلاسفة الاسلام الذين نتحدث عنهم خلفوا كتباً تشهد برغبتهم الأكيدة فى التوفيق بين دراساتهم وعقائدهم ، وفلسفتهم كلها قائمة على هذا الأساس

وواضح أن التوفيق يستلزم على الأقل جانبين متقابلين وطرفين متنافرين . ومهمة الموفق أن يمهد أسباب الخلاف ويقرب الشقين المتباعدين ؛ وهذا ما حاوله الفارابى وابن سينا فى ربط الفلسفة بالدين ، فقد كان أمامهما من جهة الفلسفة الأرسطية تراث الأغريق وأسمى صورة لما أنتجه العقل الانسانى فى ذلك الزمان ، كما كانا يعتنقان من جهة أخرى عقائد الاسلام والملة الحنيفية السمحاء التى تدعو إلى تحرير الانسان من قيوده وتوجيهه نحو البحث والنظر . وفى فلسفة أرسطو نواح لا تلائم أصول الدين ، كما أن فى الاسلام تعاليم قد لا تتفق ظواهرها والروح الفلسفية ؛ فعنى الرجلان بصبغ مذهب أرسطو بصبغة دينية وكسوة الدين بثياب فلسفية ، وبذا أصبحت الفلسفة دينية ، والدين فلسفياً ؛ أو بعبارة أدق أصبحت فلسفتهما ديناً ودينهما فلسفة . وليس فى مقدورنا أن نأتى هنا على تفاصيل أوجه التوفيق التى حاولاها ، وإنما نكتفى بالمسائل الرئيسية التى أدخلاها فى الفلسفة والدين معاً . فنتبين النقط التى خالفا فيها أرسطو والحلول التى عرضاها لبعض المشاكل الدينية . وعلى هذا فأوجه التوفيق تنقسم إلى شعبتين ، تتصل إحداهما بالفلسفة والأخرى بالدين ، وكأن الموفقين شاءا أن يخطوا بالفلسفة نحو الدين فى الوقت الذى قربا فيه الدين من الفلسفة ؛ وكأن التصالح بين الطرفين ، إن صح هذا التعبير القضائى ، تم على تساهل متبادل وتضحية مشتركة .

فى الفلسفة الأرسطية ثلاث مسائل جوهرية تبعد عن تعاليم الاسلام : الأولى فكرة الاله ومدلولها الصحيح وتحديد صفات البارئ وخصائصه ؛ والثانية الصلة بين الله والعالم وبيان ما إذا كانت الحركة والمادة محتاجتين إلى الله أو غير محتاجتين ؛ والثالثة النفس وخلودها ، نظرية كلامية ميتافزيقية ، وأخرى فلكية طبيعية ، وثالثة سيكلوجية . هذه هى النقط الثلاث الهامة التى تباعد بين آراء أرسطو وما جاء به الاسلام ، وفى التعاليم الاسلامية من جانب آخر مشكلتان عظيمتان هما : مشكلة النبوة ومشكلة

السمعيات . وقد شغل الفلاسفة بهما وعنوا بتفسيرها تفسيراً علمياً ينطبق على مبادئ البحث العقلي . وسأعرض عليكم سريعاً أوجه الخلاف هذه وطريق علاجها

لم يعن أرسطو عناية خاصة بمعرفة الله ، ولم يعتبرها غرضاً رئيسياً لفلسفته ، ولم يدخلها في قوانينه الأخلاقية ولا في نظامه السياسية ، ويظهر أنه نظر أولاً إلى العالم الحسي وبين أسبابه وعلله دون أن يفكر في قوة خفية تدبره ، وبعد أن استكملت الطبيعة وسائلها وانتظمت الأفلاك في سيرها انتهى به المطاف إلى محرك أول أخص خصائصه أنه يحرك غيره ولا يتحرك هو (١) . هذا المحرك الساكن أو المحرك الصوري هو الإله في رأيه ، ولا يذكر من صفاته إلا أنه عقل دائم التفكير ، وتفكيره منصب على ذاته (٢) . فاذا ما طالبته بتفاصيل أكثر وبيان أشمل ألفيت نفسك أمام صمت عميق وسكون مطبق . ذلك لأنه يتحرج عن الكلام في المسائل الدينية ، ويعدها فوق مقدور البشر ، ويصرح بأن الكائنات الأزلية الباقية وإن تكن رفيعة مقدسة ليست معروفة إلا بقدر ضئيل (٣) . وليت أرسطو وقف عند هذا الحد ، بل جاوزه إلى ما هو أقبح وأشنع ، فان نظرياته المختلفة تشعر بتردد بين الوحدة والتعدد . حقاً إنه ينادي بالوحدة مردداً قول هومير إنه « ليس حسناً أن يكون هناك سادة متعددون » ويلاحظ أن وحدة نظام العالم تستلزم وحدة سببه الغائي (٤) ، ولكنه يقرر في مقام آخر أن لكل فلك محركا خاصاً لا يختلف كثيراً عن المحرك الأول والإله الأعظم . فالأفلاك وحركاتها تقوده إلى التعدد وإن جهر بالوحدة وبرهن عليها ، وبذا لم يستطع التخلص تماماً من التقاليد الإغريقية القديمة التي كانت تعتبر النجوم آلهة (٥) . ففكرة الإله عنده غامضة وغير متمشية مع مذهبه ، ولا تشغل حيزاً واضحاً في فلسفته ، وأراني في غنى عن أن ألاحظ أن هذه الفكرة تختلف كل الاختلاف عن العقيدة الاسلامية . لذلك اضطر الفلاسفة المسلمون أن يبينوا حقيقة الله ويشرحوها شرحاً لا يدع مجالاً للابهام والشك ؛ وقد أثبتوا أن الله هو الموجود الأول والسبب الحقيقي لسائر الموجودات ، وأنه منزه عن الشريك والنظير والمثيل والضد ، هو الإله الواحد الحي القادر العليم الحكيم السميع البصير . يقول الفارابي : « الموجود الأول هو السبب الأول لوجود سائر الموجودات كلها وهو بريء من جميع أنحاء النقص . . . فوجوده أفضل الوجود وأقدم الوجود ولا يمكن أن يكون وجود أفضل ولا أقدم من وجوده . . . فهو أزلي دائم الوجود بجوهره وذاته من غير أن يكون به حاجة في أن يكون أزلياً إلى شيء آخر يمد بقاءه ، بل هو بجوهره كاف في بقائه ودوام وجوده . . . وهو مباين بجوهره لكل ما سواه ولا يمكن أن يكون الوجود الذي له لشيء آخر سواه (١) » . وفي هذا المعنى يقول ابن سينا إن « الأول لا ند له ولا ضد له ولا جنس له ولا فصل له فلا حد له ولا إشارة إليه إلا بصريح العرفان العقلي . وهو معقول الذات قائمها ، فهو قيوم بريء عن العلائق والعهد والمواد وغيرها مما يجعل الذات بحال زائدة . وقد علم أن ما هذا حكمه فهو عاقل لذاته معقول لذاته . تأمل كيف لم يحتج بياننا لثبوت الأول ووحدانيته وبراءته عن الصفات إلى تأمل لغير نفس الوجود ولم يحتج إلى اعتبار من خلقه وفعله وإن كان ذلك دليلاً عليه ، لكن هذا الباب أوثق وأشرف ، أي إذا اعتبرنا حال الوجود فشهد به الوجود من حيث هو وجود ، وهو يشهد بعد ذلك على سائر ما بعده في الوجود . وإلى مثل هذا أشير في الكتاب الإلهي : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » . أقول هذا حكم لقوم ؛ ثم يقول : « أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ » أقول إن هذا حكم للصديقين الذين يستشهدون به لا عليه (٢) » ، وقد برهن الفيلسوفان على وحدة الله بطريقة مبتكرة وفي مهارة ولباقة خلابتين (٣) ، وإذا كان الله واحداً فانا لا نستطيع أن نتصور له صفات خارج ذاته ، بل هو عالم حي سميع

(١) الفارابي ، رسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٥ — ٦
(٢) ابن سينا ، الاشارات والتنبيهات ، ص ١٤٦ — ١٤٧
(٣) الفارابي ، المدينة الفاضلة ، ص ٧ و ابن سينا ، الاشارات ، ص ١٣٩ — ١٤١

(1) Aristote, Physique, 258 a, 5 — b, 4.
(2) Aristote, Métaphysique, 1072 b, 27 — 29, 1079, 34.
(3) Aristote, Des parties des animaux, I, 5.
(4) Aristote, Métaphysique, 1076 a, 24; l'Iliade, II, 204.
(5) Aristote, Métaphysique, 1074 a, 31 — 38 = Physique, 258 b, 10.

قادر بذاته . « فليس يحتاج فى أن يتعلم إلى ذات أخرى يستفيد بعلمها الفضيلة خارجةً عن ذاته ، ولا فى أن يكون معلوماً إلى ذات أخرى تعلمه ، بل هو مكتف بجوهره فى أن يَعلم ويُعلم ، وليس علمه بذاته شيئاً سوى جوهره ، فإنه يعلم وأنه معلوم وأنه علم ، كل ذلك ذات واحدة وجوهر واحد (1) » فالفارابى وابن سينا يقولان ، كالمعتزلة ، بوحدة الذات وبنفيان الصفات الخارجة عنها ، وفكرة الإله عندهما أساس المذهب جميعه ، وكل المسائل الأخرى متفرعة عنها. وفى هذا ما يبين مسافة الخلف بينهما وبين أستاذهما أرسطو

لم يفارق فلاسفة الاسلام أستاذهم فى هذه النقطة فحسب ، بل انفصلوا عنه فى مسألة أخرى هى نتيجة لهذه ، ألا وهى الصلة بين الله والعالم . وذلك أن أرسطو وقد قال بقدم المادة والحركة لم يدع لله مكاناً فى هذا العالم . نعم إنه يسميه المحرك الأول ومعنى هذا أنه علة فاعلية ، ولكنه يعود فيقول إنه محرك ساكن ؛ وكل ما هنالك أن العالم يتجه إليه فى حركته (2) . فهو غرض وغاية فقط ؛ وليس تأثيره فى العالم بأكثر من تأثير التمثال الجميل فى نفس المعجب به . وإلّه هذا شأنه يتنافى مع ما يصرح به القرآن من أن الله خالق كل شيء . فلا المادة ولا العالم يتصور لهما وجود بدون الله . والتغيرات الكونية على اختلافها ترجع إلى الخالق المبدع جل شأنه . إزاء هذا التناقض الواضح لجأ الفارابى وابن سينا إلى حل وسط فقالا إن المادة مخلوقة وقديمة . خلقها الله بفيض من عنده أزلاً وتعهدها بعنايته ورعايته فيما بعد . وكلمة « فيض » هذه ليست من الكلمات التى تمر بنا دون أن نعيرها أية أهمية فإنها ذات مدلول خاص وأهمية تاريخية (3) . ويراد بها أن الله وهو عقل محض وتفكير مستمر قد صدر عنه العقل الأول كما يصدر الضوء عن الشمس ، وعن العقل الأول صدر العقل الثانى وهكذا إلى العقل العاشر . وهذه العقول مرتبة ترتيباً تنازلياً فأسماها العقل الأول وأدناها العقل العاشر . وهى موزعة على الأفلاك المختلفة لتمدها بالحركة وتحقق فيها النظام . ويختص العقل العاشر أو العقل الفعال بالعالم الأرضى وعنه صدرت المادة التى هى مخلوقة وقديمة فى آن واحد . يقول الفارابى : « وأول المبدعات عنه شيء واحد بالعدد وهو العقل الأول ويحصل فى المبدَع الأول الكثرة بالعرض لأنه ممكن الوجود بذاته ، واجب الوجود بالأول ، ولأنه يعلم ذاته ويعلم الأول . وليست الكثرة التى فيه من الأول لأن إمكان الوجود هو لذاته وله من الأول وجه من الوجود . ويحصل من العقل الأول بأنه واجب الوجود وعالم بالأول عقل آخر ولا يكون فيه كثرة إلا بالوجه الذى ذكرناه . ويحصل من ذلك العقل الأول بأنه ممكن الوجود وبأنه يعلم ذاته الفلك الأعلى بمادته وصورته التى هى النفس . والمراد بهذا أن هذين الشيئين يصيران سبب شيئين : أعنى الفلك والنفس . ويحصل من العقل الثانى عقل آخر وفلك آخر تحت الفلك الأعلى . وإنما يحصل منه ذلك لأن الكثرة حاصلة فيه بالعرض كما ذكرناه بديا فى العقل الأول ، وعلى هذا يحصل عقل وفلك من عقل ، ونحن لا نعلم كمية هذه العقول والأفلاك إلا على طريق الجملة إلى أن تنتهى العقول الفعالة إلى عقل فعال مجرد من المادة ؛ وهنالك يتم عدد الأفلاك ؛ وليس حصول هذه العقول بعضها من بعض متسلسلاً بلا نهاية ، وهذه العقول مختلفة الأنواع كل واحد منها نوع على حدة ، والعقل الأخير منها سبب وجود الأنفس الأرضية من وجه ، وسبب الأركان (العناصر) الأربعة بوساطة الأفلاك من وجه آخر » (1) ، ويقول ابن سينا كذلك إن « الأول يبدع جوهراً عقلياً هو بالحقيقة مبدع وبتوسطه جوهراً عقلياً وجرماً سماوياً . وكذلك عن ذلك الجوهر العقلى حتى تتم الأجرام السماوية وتنتهى إلى جوهر عقلى لا يلزم عنه جرم سماوى . فيجب أن تكون هيولى العالم العنصرى لازمة عن العقل الأخير (2) » وعلى هذا فالفارابى وابن سينا يثبتان الخالق الذى جاء به القرآن وإن كانا يصورانه بصورة عقلية روحية ، ويسلمان مع أرسطو بقدم العالم وإن اعترفا بحدثه

(يتبع) إبراهيم مدكور

(1) الفارابى ، المدينة الفاضلة ، ص : 1

(2) Aristote, Méraphysique, 1074 á, 23.

(3) Madkour, La place d' alfârâbi, p. p. 44 — 77

(1) الفارابى ، الثمرة المرضية ، طبعة ليدن ، ص ٥٨ و ٥٩

(2) ابن سينا ، الإشارات ، ص ١٧٤ — ١٧٥

التاريخ في سير أبطاله

٣ – ميرابو

ميرابو ... تلك الأعجوبة !
جوته

للأستاذ محمود الخفيف

تتمة

صارت الغلبة للشعب ، فلقد وقف ميرابو وقفة حاسمة كان في الثورة كما رأينا نجاتها ؛ وليت شعري هل يحمل عمله هذا على الهدم أم هو يحمل على البناء ؟ أتراه يوجه السفينة إلى حيث لا عاصم لها من الموج ، أم تراه يجنبها الصخرة المعترضة ؟ أدر الدفة يا ربانها ! لكن الربان اليوم يزجيها ويستحثها ! أكان عن طيش ذلك أم عن خبل ؟ كلا فأنى للطيش أو الخبل أن يبلغا هذا الرأس الأشم ؟ أو لم ير الأشراف يأتمرون بالثورة ويرى الملك يتنمر بغتة ويهم أن يأتيها من مقتلها ؟ إنه يعرف ما يفعل ويدرك متى يتخذ الهجوم سلاحاً ومتى يجعل من الصبر مثابة وأمنا . وإنك لتراه يجمع في ذلك إلى إقدام القائد حنكة السياسي

أكبرته باريس وكانت قد أعجبت بما قرأت له في صحيفته التي كان يصدرها دفاعاً عن آرائه ، واليوم تخلص له الحب ، ولو كان للرجل يومئذ مآرب خاصة كما تقول عنه خصومه لكان له من تلك الشهرة أعظم فرصة ، ولكنه وقف من باريس موقف الحذر الفطن ، إذ كان يخشى أن تنقلب الثورة من مظهرها الدستوري إلى مظهر دموي هو عنده الطامة الكبرى

ولكنه إذ يعمل على تفادي الخطر من ناحية الشعب لم يكن يأمن جانب البلاط ، ولم ير في إذعان الملك وحمله السادة الممتازين على مجالسة العامة إلا سكون المتحفز الذي يتربص بالجمعية الدوائر ليضربها الضربة القاضية

ولم تلبث الحوادث أن أبدت ما رأى ، فقد طافت شائعات السوء بالجمعية ثم أيقنت أن الملك يحشد حول باريس وفرساي من جنده نحو أربعين ألفاً ، وأنه موشك أن يعود إلى سالف موقفه منها وهو اليوم بهؤلاء الجند أشد بطشاً وأعظم حولاً ، ولقد أنكر ميرابو هذه السياسة المذبذبة من لدن ذلك الملك الذي كان بسياسته يوقظ الفتنة ويحركها ؛ وتساءل في دهشة وفي قوة حجة : « إذا كان الملك يريد أن ينفرد بالأمر دوننا فلم دعانا إليه ؟ وإذا كان قد دعانا لحاجة إلينا فكيف يسوغ له أن يشهر السلاح في وجوهنا » ؟

وتطلعت الجمعية إلى رجلها من جديد وانتظرت باريس منه القول الفصل ، ووثب ديموستين الفرنسي مرة ثانية إلى الصدر فهز جنبات القاعة بل جوانب فرنسا بخطاب من أبلغ ما فاه به . ثم أراد أن يأخذ الطريق على من يكيدون للجمعية بالدس فاقترح أن ترسل وفداً إلى الملك يعلن له ولاءها ويرجوه أن يسحب الجند من حول باريس . ولقد جعلت الجمعية ميرابو على رأس ذلك الوفد ؛ فلما جاء الملك أجاب متهكما : « إنه وحده الذي يحرك جنده كما يريد ، وإذا كان النواب يخافون هؤلاء الجند فلينسحبوا إلى ما وراء باريس ؛ وبعد ذلك بيومين عزل (نكر) من الوزارة يوم ١١ يوليو سنة ١٧٨٩

أدرك ميرابو أن الكارثة واقعة لا محالة . ولم تنقض ثلاثة أيام على عزل نكر حتى حملت باريس السلاح ودكت ذلك الحصن العتيد سجن الباستيل رمز الطغيان والعبودية

دخلت الثورة في دورها الدموي الرهيب ؛ ولقد ذعرت الجمعية وخشيت أن تقع الحرب الأهلية فتقضي على الثورة والجمعية معاً ؛ وكان رجلها غائباً عنها لما علم من وفاة أبيه . فلما عاد عاودها الأمل وأوفدت وفداً جديداً يعيد على الملك ملتمس الجمعية ، ووقف ميرابو ينصحه قائلا : « بلغوا الملك أن جنوده الذين أحاطوا بنا من كل صوب قد غمرتهم أيدي أمرائه وأميراته ورجال حاشيته بالهدايا والتحف . وأن هؤلاء الجند وقد بهرهم بريق الذهب ولعبت برؤوسهم الخمر باتوا يتغنون بسحق فرنسا وكل ذلك في اليوم السالف لليلة سان بارثلميو »

ولكن هاهو ذا رسول من قبل الملك ينبىء الجمعية بأنه في الطريق إليها ، وهاهو ذا ميرابو ينصح إليها أن تلاقيه جادة صامتة معلنة حدادها على من قتلوا في باريس قائلا : « إن في صمت الشعوب درساً للملوك »

وجاء الملك يستعين بالجمعية على تهدئة الحال في باريس ثم يدخلها في رهط من النواب معلناً رضاءه عما اتخذته بعد سقوط الباستيل ! ويسحب الجند منها ومن فرساي !

وكانت باريس بعد أن أعلنت غضبتها قد سيطرت على الموقف فألفت الحرس الوطني وجعلت رياسته للافايت وانتخبت بابي عمدة لها وأسست كثيراً من الصحف والنوادي الثورية

أدر الدفة يا ربانها ! لقد أحدق الخطر بها ، فلربان مشفق يرقب مجراها وهو أشد حذرا وأكثر تشاؤماً . لقد وقع ما كان يخشاه وجرت الدماء في باريس ، وطاف شبح الفوضى بالأقاليم ، وبات الشعب في سكرة النصر يتوعد ويتوثب ، والملك لا يزال ألعوبة في يد بطانته وعلى الأخص في يد امرأته ، والمهاجرون من الأشراف يؤلبون أوربا على الثورة ، وغول الخراب المالي يطالع البلاد من كل ناحية

ولكن الربان وسط العاصفة لا يعرف اليأس سبيلا إلى قلبه . زار باريس فهبت تزاحم مهرجانه باريس ، وطاف بخرائب الباستيل يشهد مصرع الظلم فامتلأت عربته بالزهور ، ورأى الحرية الحمراء تعلن عن نفسها في أجواء المدينة راقصة صادحة ، فهل أطربه ما سمع وما رأى ؟ كلا بل أمضه ذلك وأزعجه

زادت الحوادث مهمته صعوبة ولكنها لم تفل من عزمه ، ولعله كان يأمل أن يجد في اشتداد الأزمة مخرجا من الأزمة ! وإن بدا ذلك متناقضا . كان يرجو أن يكف أعوان الملك من غلوائهم ، ويصالحوا على الثورة نفوسهم ، ولكنه ما لبث أن عرف أنهم لا يزالون يبيتون لها وهم بذلك يرسمون طريقهم إلى الهاوية ويجرون معهم ملكهم المسكين . ومن له بأن يدرك هؤلاء عاقبة طيشهم ؟

يالله ! ألم يأن للذين استذلتهم شهواتهم وحطمهم كبرياؤهم أن يفيقوا من غمرتهم ؟ ما بال فرساي تتحدى في أشخاصهم باريس ؟ ما بال أوانس البلاط وفرسانه تخف أحلامهم فيهينون في حفل بهيج يقيمونه لفرقة سويسرية من فرق الحرس الملكي شعار الثورة ويسخرون من مبادئها ؟ يا ويحهم ! ألم يكفهم ما باتوا فيه يتقلبون من نعمة ، فهم ضاحكون ممن يبيتون على الطوى ويفيقون على الوساوس والأوهام ؟ ولكن باريس ترسل الى أختها رهطا من نسائها وغوغائها ، فاذا الملك وحاشيته رهائن عندها يتخذ على الرغم منه من التويلري سجناً له !

أدر الدفة يا ربانها ! لكنها جمحت اليوم والتوت عليه . وأنى للجمعية أن تقنع بما كانت تقنع به بالأمس ؟ لقد صارت الكلمة امامة باريس وأندية باريس وصحف باريس !

وإن المرء ليتساءل لم يخاف ميرابو كل ذلك الخوف من خطوات الشعب وانتصاراته ؟ والجواب على ذلك يسير ، فقد كان يرى في خطة الشعب ما يباعد بينه وبين الملكية وما يحمل الملك وبطانته على الجد للقضاء على الثورة وهو لا يرى لها نجاحاً إلا في التوفيق بين القوتين ، هذا إلى ما كان يخشاه من احتمال تدخل أصحاب العروش لحماية عرش فرنسا إذ كان المهاجرون لا يفتأون يوقعون بينهم وبين شعبهم العداوة والبغضاء ، وأهم من ذلك كله فقد راحت الجمعية تعلن حقوق الانسان وتثير عقيم الجدل حول الدستور ، دون أن تتناول مشاكل البلاد الأساسية بالحل . فلقد ظلت الحالة المالية على ما هي عليه إن لم تكن ازدادت سوءا ، وتعقد الموقف السياسي بين فرنسا وانجلترا والنمسا ، ومما ضاعف حرج الموقف أن الجمعية رأت ألا تجعل للملك سلطة فعلية في الاعتراض على القوانين ، وفي اعلان الحرب والسلم ، ولقد هال ذلك ميرابو فقال يوماً لصديقه لامارك : « إن البلاد مقدمة على أشد ضروب الفوضى ، وما لم تتدارك الملكية فلعناء مصيرها حتما ، ويوم يحيق بها الفناء وتضرب الفوضى بجرانها يساق الشعب إلى الرضى بالاستبداد المطلق ، إذ يكون المستبد في تلك الحال في نظره هو المنقذ المصلح » . وإنك لتراه بهذا كأنما يرى المستقبل ويصف لك مذابح سبتمبر وعهد الارهاب وديكتاتورية روبسبير مما يدل على لقانة مدهشة !

وقف في الجمعية وكانت قد انتخبته رئيساً لها يدافع في عزم وقوة عن حق الملك في الاعتراض على القوانين ، داعياً بكل ما في وسعه إلى تقرير مبدأ الملكية الدستورية ؛ ولا تسل عما كان يبذله من جهد أعانته عليه قوة بدنه ، وعما كان يعرض من آراء أوحت بها اليه دقة فهمه ، وبعد نظره ، وصدق تجربته ؛ وهو في هذا الموقف الذي يؤود حمله الجبابرة لا يغفل شؤون وطنه فيفاوض (بت) في انجلترا ، ويلتمس حلا لارضاء النمسا ، ويلقى على الجمعية البيانات المسهبة في المشكلة المالية ، ويلفت اليها أصحاب الرأي . وجملة القول أنك تراه يعمل عمل رئيس حكومة ، وإن لم يكن له مركزه ، حتى لقد وصفه كاي ديمولان بطل الهجوم

على الباستيل بأنه « قنصل أكثر منه رئيس جمعية دستورية »

ألا ترى فى ذلك الاخلاص كأروع ما يكون الاخلاص ، وتلمس فيه الرجولة كأقوى ما تكون الرجولة ؟ ألا ترى كيف ينسى الرجل نفسه ، ولا يذكر إلا وطنه ؟ ولكن الجمعية وا أسفاه قد خذلته حين كان ينتظر منها العون . وظلمته حيث كان يطلب اليها الانصاف !

أخذ الشك فى نياته يتسرب إلى نفوس النواب ، والشك إذا تملك النفس يعمى ويصم ، وليس مثله داء يبدل عرف الناس نكرا ، ويجعل نهارهم ليلا ، ويلبس الحق بينهم بالباطل . انظر إلى هؤلاء النواب كيف يرون فى رجلهم اليوم رجل الأمس ، تخيفهم طويته وإن أعجبتهم حجته ، أو تريبهم حماسته وإن هزتهم فصاحته ؛ وتدفعهم إلى معارضته بديهته وإن أنقذتهم يقظته ! ولكن أخيل الثورة لم تلن قناته وإن جاء غمزها ممن يعمل لهم ، ولم تنفك عنه عبقريته وإن التوت عليه الأمور أو كادت ؛ وظل يبسط آراءه للناس وينذرهم أن الثورة تقتل نفسها إن جرد الملك من سلطانه وجعل التشريع والتنفيذ جميعاً للشعب . وكان قد أدرك يومئذ أن الملك بعد أن صار رهينة فى باريس ، وبعد أن ترامى إلى سمعه وسمع حاشيته ما يريد العامة بنفوذه ، وما تقول الصحف عنه ، لابد أن يفكر فى الالتجاء إلى أعداء البلاد ، وما لبث ميرابو أن تحقق من ذلك ، إذ علم أن المفاوضات كانت جارية بين البلاط الفرنسى والبلاط النمسوى ؛ ومعنى هذا أن الحرب عما قريب ستكون كبرى مصائب البلاد !

وفى هذا الجهد الذى يبذله ميرابو دليل على مقدرة فائقة فى السياسة تزيد إعجابنا بهذا الرجل ، ويدحض فرية من يصفون أعماله بالهدم ، وتسخر ممن يذكرونه فيجرؤون على تسميته كبير الغوغاء ! على أن لكل عظيم حساده وأعداءه ، كما أن له مناصريه وأصفياءه . وليست الحنكة السياسية فحسب ما ينطوى عليه موقف ميرابو ، بل إن المرء ليعجب ببسالته ، حين يواجه الثوار بتلك الآراء وحين يترفع عن تملق الشعب واسترضائه ، وحين يحمل الاخلاص لما يرى أنه الحق فوق العواطف والأهواء الشعبية ، ولو لم يكن له غير ذلك من المآثر والصفات ، لعد بذلك الخلق وحده عظيماً من العظماء !

يئس ميرابو من النواب ولكنه لم ييأس من نفسه ، ونراه اليوم يخطو خطوة جعلها خصومه كبرى خطيئاته ، وأود لو أجعلها كالعنوان من حسناته لولا ما أحاط بها من ظروف وما اكتنفها من ظنون ، بل وما لحق بها من عيوب !

كان طبيعياً أن يلجأ إلى الملكية بعد أن أعياه صرف الشعب عن غيه ، وبعد أن حيل بينه وبين منصب رسمى يستعين فيه بالقوة على تنفيذ سياسته . ولو أن نواب الجمعية أدركوا حقاً مصلحة وطنهم لعلموا أن هذا الرجل كان يومئذ خير من يضطلع بأعباء الحكم . ولكنه حين اقترح عليهم السعى إلى استبدال الوزارة القائمة بوزارة قوية بادروا إلى اصدار قرار يحرم الوزارة على كل عضو من أعضاء الجمعية ، وما كان المقصود بهذا القرار سوى ميرابو وحده !

ولقد ثارت ثائرته لهذا القرار ، فلم يتمالك أن صاح بالنواب قائلا : « سوف تذرفون الدمع دماً على ما تفعلون » . وندم ميرابو أشد الندم أو قل أسف أشد الأسف على أن لم يكن بباريس عقب سقوط الباستيل ، إذ لولا غيابه عنها لتشييع رفات والده لانتخب عمدة لها بدل باى ، ولقد كان هذا المنصب يمكنه من صد تيار العنف أو على الأقل يمهد له سبيل الاتصال بالملك .

وهل كان فى تطلع ميرابو إلى الحكم ما يشينه ؟ كلا بل إن فى ذلك ما يزيدنا احتراماً له وتقديراً لسياسته ما دام الحكم إحدى وسائله إلى تنفيذ غرض يعتقد حقاً فى صلاحيته ، فضلا عن دفعه به خطراً يكاد يجتاح البلاد . وإن أعجب فعجب عد ذلك من نقائصه أو من نقائص أى زعيم فى مثل موقفه يرى فى الحكم طريقا إلى الخلاص ! إن النقيصة كل النقيصة ألا يسعى الزعيم فى تلك الحالة ما وسعه السعى للوصول إلى الحكم

خطا ميرابو خطوته نحو الملكية ووسط صديقه لامارك لدى البلاط ، وأخيراً قبل الملك أن يستعين بآرائه ، وصار ميرابو منذ مايو سنة ١٧٩٠ المستشار السرى للملك ! وهنا يأبى سلوكه الخاص إلا أن يختلط بسياسته العامة فيلحق بها كثيراً من الشوائب أطلق الناس فيها بعد من أجلها ألسنتهم فيه بكل فاحش من القول وباطل من الاتهام . وبيان ذلك أن ميرابو وقد غرق فى الدين من أخمصيه إلى قمة رأسه بسبب تبذيره من ناحية

وبسبب اشتغاله بشؤون وطنه عن شؤونه الخاصة من ناحية أخرى ، قد قبل أن يدفع عنه الملك ديونه وأن يحمل له أول كل شهر ستين ألفاً من الفرنكات

أيفسر عمله هذا بالخيانة ؟ ويعتبر قبوله المال رشوة ؟ هل غير خطته فمالأ الملك على حساب أمته في نظير ما أخذ من مال ؟ كلا ! بل لقد ظل أميناً لمبدئه وفياً لوطنه ، إذاً فمن الظلم أن يفسر عمله بالخيانة ، ومن الاسراف أن نعتبر قبوله المال رشوة ، بيد أني وإن نفيت الخيانة والرشوة عنه وشايعت من يعتبرون هذا المال مكافأة له على خدماته ، لايسعني إلا أن أقرر أنه ليؤلمني أن يلجأ من كان له مثل عظمته وبسالته إلى العمل في الخفاء مهما كان من نقاء طويته ومهما جر ذلك من غضب الشعب عليه ، كذلك ما كان لزعيم أن يبيع خدماته بالمال ولو عدم قوت يومه

أخذ ميرابو يقدم التقارير للملك ، كما أخذ يدافع بكل ما في نفسه من قوة عن مبدأ الملكية الدستورية ، ولكن الجمعية أوشكت أن تتم الدستور في سبتمبر وجعلت حق الملك في الاعتراض على القوانين حقاً معلقاً ، ولم يسع الملك سوى الاذعان ، فلقد أصبحت باريس قوة خطيرة وظهر اليعاقبة أبطال الارهاب فيما بعد واستهان الناس بالملكية واجترأت عليها الصحف والأندية

على أن الأمر قد أصبح اليوم أعظم خطراً من الدستور وما يتصل بالدستور . فلقد يئس الملك من الثورة وما تدعو إليه ويئس أصحاب الثورة من الملكية وما تحافظ عليه ، ولذلك لم يكن عجباً أن يلجأ الملك إلى أعداء فرنسا ، وأن يلجأ الثوار إلى الاستعداد واليقظة حتى لقد عول الملك على الهرب سراً !

وكان ميرابو الرجل الوحيد الذي لم يأخذه دوار الزوبعة فألم بالموقف من شتى نواحيه ، وتمثلت لعينه الساهرة تلك الهوة السحيقة التي أوشكت أن تتردى فيها البلاد ، فتلفت حوله علّه يصيب من يمينه ، فهذا موقف يتطلب معونة الرجال ، ولكن بصره وا أسفاه ارتد إليه خائباً ، فلقد أبى سوء طالعه ، أو على الأصح سوء طالع فرنسا إلا أن تحرم من خبرة الرجل الوحيد الذي كان يستطيع خدمتها ، إذ أحيط بالريبة من جميع الجهات . تطلع إلى الملكة وكان يقول : « إنها الرجل الوحيد في حاشية الملك » ، ولكن الملكة لم تر فيه سوى صعلوك يتكلف خلال العظماء على حساب الظروف ، وتطلع صوب الملك ، ولكن الملك ما وثق به يوماً وما كان يرى فيه إلا الخصم يظهر عكس ما يبطن ، ولذلك اتقى شره فاشتراه بماله واحتمى خلفه . كتب شاتو بريان بعد الثورة يقول : « كانت المأساة الحقيقية أن الملك في أحرج أيامه لم يثق في هذا الرجل ، وما كان يضره أن جاء ذلك متأخراً . وما كان يضره أن يعمل بنصائحه أو أن يتقبلها قبولاً حسناً ولو في ظاهر الأمر ، وأي مأساة لعمري أعظم من أن تهيئ الأقدار رجلاً مثل هذا ، وفي مثل هاتيك الظروف فلا ينتفع به ؟ ! »

على أنه وقد أعوزه الرجال قد اهتدى إلى رجل واحد ، وذلك هو شخصه ، هو نفسه ، فأطلع الملك على جلية الأمر ذاكراً له أن الهرب معناه التنازل عن العرش وضياع حقه فيه ، وما على مولاه سوى أن يخرج في جيشه إلى مدينة غير باريس فيحتكم إلى شعبه طالباً إنصافه ومعونته معلناً رضاءه عن مبادىء الحرية والمساواة ، ولو فعل لانتصف له الشعب ، ولكنه لم يفعل وما كان مثله ليستطيع ذلك ، وليس من يفكر في الهرب بقادر على أن يواجه الحقائق

ولكن هل يدنو اليأس من ميرابو ؟ كلا . فما كان ليزداد على الشدة إلا مضاء وعزماً ، فوقف كالطود يتلقى عن البلاد السهام ويطرد عنها شبح الحرب ، ويجد في انقاذها من الجوع ، ويسعى في التقريب بين الملك والثورة ، يواصل العمل طيلة يومه وشطراً من ليله حتى لقد قال عنه كاي ديمولان : « لقد كان يوم هذا الرجل بعشرة أيام من عمر غيره »

ولكن الموقف ازداد سوءا على سوء حين وقفت الجمعية موقفها من رجال الدين وأعلنت الدستور المدني للكنيسة بحيث صار منصب الأكليروس بالانتخاب على أن تدفع لهم الحكومة أجرا وتستولي على أراضي الكنيسة وعشورها مما أغضب البابا وأزعج الملك فأعلن اعتراضه على قرارات الجمعية ، ولكن أنى للجمعية أن تفرض له اليوم وجودا ؟ لقد أجابت على عمله بأن من لا يقسم اليمين على احترام ذلك الدستور جزاؤه الطرد

أدر الدفة ياربانها ! لكن الأيدي تتكالب اليوم عليها والريح جامحة عاتية . والربان يغالب المرض ويتحامل على أعصابه ، بل ويستمهل الموت . ما باله يدخل الجمعية في مارس سنة ١٧٩١ مصفوراً مضعوفاً على خلاف عادته ، ما باله يكتئب كل يوم وما بال بريق عينيه يتضاءل لولا ما يشع فيهما من يقين وعزيمة ؟ ترفق

أيها الموت بالربان ! إنه رجل أمة بل إنه أمة فى رجل ! بالقسوة القدر ! ولكن أنى لجسم مهما كانت قوته أن يطيق مثل ذلك النصب ؟ وحسبك أن تعلم أنه خر مغشياً عليه فى أواخر مارس وهو فى طريقه إلى الجمعية ولكنه على الرغم من ذلك وصل اليها وألقى خطاباً مطولا . لا . إنه يسر إلى صديق من أصدقائه أنه يموت !

وفى أوائل ابريل فى أشد ما تكون الحاجة اليه يرقد هذا الطود الأشم ، ويحيط الناس بمنزله من جميع الطبقات والهيئات ، والأطباء يصدرون تقاريرهم مرة كل ثلاث ساعات ، والملك يستفسر فى السر مرات وفى العلن مرات ، والأندية تتنبأ عنه بلا انقطاع ، والشعب يعلق أنفاسه فى انتظار ما يطمئنه وقد غشيه من الهم ما غشيه

والرجل عظيم فى الموت كما كان عظيما فى الحياة ، يقول لصديق يسند له رأسه : « ليتنى أعيرك هذا الرأس » ويسمع صوت المدفع فيقول : « أهكذا يحتفى بدفنى كأخيل » ويتذكر الملكية فيقول والأسف يمزق نياط قلبه : « إنى أحمل معى الملكية إلى القبر » ويفيق الناس من غشيتهم على الخبر الفاجع ، فتفيض عيون وتدمى قلوب ، ويخرج شعب بأسره يشيع جثمان رجله ، وتقضى العاصمة أياماً فى حدادها ، ويجهش أشداء الرجال بالبكاء فى طرقات الجمعية وفى ردهات البلاط ، ثم ... ثم تسير السفينة بلا ربان !

إنه فرد ينقص من البلاد ، ولكن فرنسا يزعجها ويهولها ما ترك وراءه من فراغ ، ولم تلبث الكوارث أن داهمتها من كل صوب ، فلقد فر الملك وألقى القبض عليه عند الحدود ، ثم وقف عن عمله ، واندفعت فرنسا فى طريقها إلى الحرب ، ثم إلى إعدام الملك ، ثم إلى المذابح الأهلية وعهد الأرهاب !

ولو عاش ميرابو عاماً واحداً لتغير تاريخها ، بل وتاريخ العالم ؟ ولكن للقدر أحكاما مباغتة هى التى تصنع التاريخ !

الخفيف

٢ – التعليم والحالة الاجتماعية في مصر

للأستاذ اسماعيل مظهر

أظهرت في المقال السابق الوجوه التي تربط بين التعليم والحالة الاجتماعية ، وعددت كثيراً من التأملات التاريخية التي قد يكون لها اتصال كبير أو صغير بالحالات الجديدة التي تكتنفنا ، غير أن الاقتصار على تعديد وجوه الارتباط بين التعليم والحالة الاجتماعية ، والقول بأن التعليم يجب أن يتجه اتجاهاً اجتماعياً ، أمر يجب أن يعزز بإظهار المخاطر الشديدة التي يتعرض اليها كياننا الاجتماعي من جراء الفصل بين سياسة التعليم ، وبين ملابساتها الاجتماعية

ولقد ظهر في العهد الأخير أن القائمين بأمر التعليم قد اضطروا في مواقف عديدة أن يتجهوا إلى معالجة بعض الأمور علاجاً قائماً بعض الشيء على طبيعة الحالات الاجتماعية . وإني لآسف إذ أقول إنهم لم ينجحوا فيما قصدوا إليه . وليس السبب براجع إلى قصور منهم ، أو تقصير عن أداء واجباتهم كاملة ، وإنما يرجع في الحقيقة إلى أن سياسة التعليم الحاضرة لا تواتيهم بكل الأسباب الضرورية التي تمكنهم من تنفيذ برامج تتفق وما تتطلب الحالة الاجتماعية من صنوف العلاج . ولا أريد أن أعدد هنا حالات بذاتها ، وإنما أريد أن أبحث في مجمل الظواهر التي تترتب على الفصل بين سياسة التعليم والملابسات الاجتماعية ، قدر ما تتيح لي تجاربي القليلة

***

كتب الفيلسوف هربرت سبنسر في أواخر القرن الفارط مقالاً عنوانه « الكائن الاجتماعي » شبه فيه بنية الاجتماع الانساني بكائن متعضن ، وأخذ يقيس الظواهر المتقابلة فيهما ويوازن بين حالات خاصة في جسم الفرد وجسم المجتمع . ولا شك في أن هذا الفيلسوف الكبير قد غفل عن أمر ذي بال جعل بحثه هذا محتاجاً الى كثير من التحوير ، بل لا نبالغ إذا قلنا إن غفلته عن ذلك الأمر قد أثرت في النتائج التي حاول الوصول اليها فجاءت مفككة غير موصولة ولا مؤدية إلى فكرة محدودة ينتهي إليها البحث . ذلك بأن بين الحي والكائن الاجتماعي فروقاً رئيسية تميز بينهما تمييزاً لا يقف عند حد الظواهر ، وإنما يتعدى إلى التكوين الوظيفي فيهما . وقد يعلم الذين يدرسون علوم الأحياء أن الحي يتكون من خلايا دقيقة هي وحدات بسيطة التركيب تحتوي على نواة هي سر الحياة فيها . ولكن اجتماع هذه الوحدات البسيطة التركيب ينتج حياً عويص التركيب معقد التكوين جهد ما نتخيل . ذلك في حين أن الكائن الاجتماعي إنما هو كل بسيط التكوين يتركب من وحدات غاية في التعقيد وعلى معرفتك هذا الفرق الوظيفي ، يتوقف وصولك إلى النتائج الصحيحة . فالخلايا لا قوام لها ولا حياة بغير اندماجها في بنية الكل الحي . أما الوحدات (الذوات العاقلة) التي يتركب منها الكائن الاجتماعي ، فكلما كانت أكثر استقلالا عن ذلك الكائن برز أثرها وتميزت وظيفتها واستبانت قيمتها ورجل فرعها وأصبحت قوة قادرة على التأثير في الكائن الاجتماعي بما يحفظ عليه حياته الاجتماعية ويحركه نحو الرقي الاجتماعي ويبث فيه روح التطلع إلى الارتقاء المدني ، وبالجملة على جعله كائناً اجتماعياً ممتازاً بأثره العملي في الحياة ذلك على الضد مما لو اندمجت هذه الوحدات العاقلة في بنية الكائن الاجتماعي . فانها إذ ذاك تفقد استقلالها وقوتها على التأثير بالعمل على رقي الجماعة ، لأن اندماجها هذا إنما يسلبها القدرة على التفكير والتأمل في حقائق الأشياء ، ويفقدها أخلاقها الشخصية ، وبوجه عام يدمجها فيما يسميه الاجتماعيون « عقلية الجماهير »

هذه حقيقة أولية ، على ما فيها من تعقيد وحاجة إلى الفهم ، من الضروري أن نعيها وأن نجعلها نصب أعيننا كلما فكرنا في وظيفة التعليم باعتباره عاملاً من عوامل استقرار الحالات الاجتماعية في كل أمة من الأمم . أما وقد وعيناها فانا نتساءل : أيفي التعليم عندنا باخراج رجال فيهم من الاستقلال الخاق والملق ما يجعلهم في المستقبل قوى مؤثرة في الكائن الاجتماعي ، أم على العكس من ذلك يخرج رجالاً قُصّاً يكتفون من الحياة بالاندماج في جسم الكائن الاجتماعي ، فيظلون طوال أعمارهم مغمورين

فى عقلية الجماهير ؟ وإنى لآسف إذ أقول إن تعليمنا بعيد عن أن يخرج رجالاً مستقلين على النمط الذى تتطلبه طبيعة الحالات الاجتماعية الجديدة التى أخذت تشعرنا بأنا مقدمون على انقلابات فكرية خطيرة .

إذن فواجب التعليم ينبغى أن ينحصر فى إخراج رجال مستقلين بعيدين عن التأثر بروح الجماهير . وتكوين استقلال الفرد يجب أن يكون بداءة التعليم ونهايته . أما العمل على شحن العقول بشتى المعلومات العلمية وتكوين ملكات خاصة فى الأدب والفن ، فلن يكون لها من أثر فى الحياة ، ولن تقوم من عوج الكائن الاجتماعى مالم يسبقها الاستقلال الذاتى وتدريب الملكات الخاصة على مماشاة ما تتطلبه مقتضيات ذلك الاستقلال

ولقد أظهرنا فى المقال السابق أن ابن الفلاح أكثر استقلالا من الناحية العملية من المتعلم الذى فقد استقلاله الذاتى بحكم الظروف التى نشأ محاطاً بها . غير أن استقلال الفلاح العامل استقلال ناقص ، إذ هو استقلال أشبه بالاستقلال الحيوانى منه بالاستقلال الانسانى ، ذلك بأن عدته فى هذا الاستقلال تقوم على قوة عضلاته وعلى صبره واحتماله ورضاه بمحيطه الذى يعيش مكتفياً به . وعامة ذا ليس فيه شىء من مؤهلات الاستقلال الانسانى ، وإنما هو استقلال يشارك فيه الفلاح كثيراً من الحيوانات . وعلى ذلك نجد أن ما عندنا من مكملات الاستقلال الفردى عند الفلاح تنقصه الناحية الثقافية التى تمكنه من أن يصبح ذا أثر عملى فى تكييف حالات الكائن الاجتماعى . ولكن هذا الاستقلال مهما كان فيه من ضروب النقص فهو استقلال على كل حال . أما المتعلم المتعطل فحالته تناقض هذه الحال . فان تعليمه لم يمكنه من أن يكون مستقلا من ناحية الثقافة ، فى حين أن نشأته ومحيطه قد سلباه ناحية الاستقلال الأخرى

أما الأسلوب الذى يجب أن ينتحى فى التعليم حتى يكون أداة صالحة لتخريج رجال مستقلين ذوى أثر فى تكييف حالات الكائن الاجتماعى ، فسنفرد له بحثاً خاصاً . وسنقصر كلامنا الآن على المخاطر التى يتعرض لها كياننا الاجتماعى من وجود فلاحين استقلوا حيوانياً ، ومتعلمين فقدوا كل ضروب الاستقلال

على الرغم من أن الأخطار التى يتعرض لها مجتمع تناحرت عليه كل هذه الظواهر كثيرة متعددة ، فان أعظم هذه الأخطار وأشدها أثراً فى مستقبله ، إنما ينحصر فى حدوث ما يدعوه الاجتماعيون « التطفل الاجتماعى » . والتطفل الاجتماعى حالة ترهق فيها طبقات غير عاملة طبقات عاملة بمطلوبات حياتها . ولهذا التطفل مظاهر عديدة أخبثها أن تكون الطبقة المتطفلة هى بذاتها صاحبة السلطة العليا فى المجتمع ، كما حدث فى أوروبا فى خلال القرون الوسطى ، وكما هى الحال فى كثير من ممالك الشرق فى حالته الحاضرة . والويل لمجتمع تسود فيه هذه الحال

***

التطفل حالة طبيعية لاسبيل إلى نكرانها . فهنالك حيوانات تتطفل على نباتات ، ونباتات تتطفل على حيوانات . وقد يتطفل حيوان على حيوان ، أو نبات على نبات . فهو ظاهرة تكاد تشتمل كل نواحى العالم الحى ، وتحتكم فى الكثير من مظاهره الجلى . غير أن نظرة واحدة فى هذه الحقيقة الطبيعية تظهرك على أن التطفل حيثما كان وأنى كانت وسائله ومظاهره ، لن ينتج إلا هدماً فى الحياة ، ولن يبرز إلا فسادا ، ولن يؤدى إلا إلى إرهاق شامل فى القوى الحيوية تختلف درجاته ومظاهره ونتائجه باختلاف الظروف . وقلما يستطيع عالم طبيعى أن يخص تلك الظروف التى يتجلى فيها فعل التطفل فى عالم الأحياء ، فان ذلك من الأشياء التى يستعصى على العلم تحديد مظاهرها عامة وخاصة ، وفعل كل متطفل فى مختلف الظروف ، على كل متطفل عليه فى متباين الحالات . وإنما يستطيع الاحيائى أن يدرس ظواهر التطفل فى حالات يقف عليها ، وأن يدرس أثر الحى المتطفل فى بنية الحى المتطفل عليه ، محصياً فى كثير من الحالات أوجه العلاقة بينهما وتأثير دورة حياة الحى المتطفل فى حاضنه

ولن يعدو العالم الاجتماعى هذه الحال عينها . فليس فى مستطاعه أن يحصى أوجه التطفل الاجتماعى فى مجتمع بعينه ، ولا يدرس الحالات درس توفر على دقائقها وتدرجاتها التى تكفل له الوصول إلى نتائج مقطوع بصحتها قطعاً تاماً . والعالم الاجتماعى أضعف وسائل من العالم الطبيعى . فان هذا بين جدران معمله ، يستطيع أن يحصر الحالات ويحدد الظواهر ، فى حين أن زميله الاجتماعى إنما يتأمل من حالات عامة غير محصورة ولا محددة

تحديداً يحمى الحكم القاطع على أصولها وظواهرها أمراً سهلا هيناً . غير أن هذا كله لن يحول بين الباحث الاجتماعى وبين تبين الحالات الكلية التى يتخذ درس مظاهر التطفل الاجتماعى وسيلة إلى اكتناهها .

من الحالات الكلية فى التطفل الاجتماعى ، بل ومن أظهر تلك الحالات أثراً فى الجماعات الحديثة عامة ، وفى مصر خاصة ، تسلط غير ذوى الكفايات ، وإن شئت فقل المتعطلين ، على موارد ما تنتج الأيدى العاملة من ناحية ، وعلى إنتاجها نفسه من ناحية أخرى ، من غير أن يكون لهؤلاء المستغلين أى ضلع فى تكوين المورد أو فى الانتاج . من هنا تحدث حالة من حالات التطفل الاجتماعى تستنفد فيها أيد متعطلة ثمرات الجهود التى تبذلها أيد عاملة ، بغير أن تنال الأيدى العاملة من ثمرات جهودها ما يكفى لحفظ حيويتها أو قدرتها على العمل والانتاج . فان من شأن المتطفل أن يجتهد فى استغلال حاضنه بكل صور الاستغلال ، وأن يبلغ من الانتفاع بحيويته جهد ما يستطيع ، وكلما قلت قوى المقاومة فى الحاضن ازداد المتطفل شرة وبأساً ، حتى ينتهى الأمر بحدوث ما يسميه الاجتماعيون « بالتنكس الاجتماعى » وهى حالة تتساوى فيها طبقات المجتمع لا من حيث الكفايات العليا ولكن من حيث العجز عن العمل المنتج . وما لهذا الأمر من نتيجة إلا الفوضى القاصمة ، ولا ينكر أحد أن فى مجتمعنا هذه الظاهرة الخبيثة . فالأيدى العاملة لا تنال من منتوج عملها ما يكفى للاحتفاظ بحيويتها ، والأيدى المتعطلة تبدد ثمرات تلك الجهود . وعلم ما يترتب على ذلك عند الله .

ومن تلك الحالات هجر الريف والعيش فى المدن . ولقد بحث هذه الظاهرة كثير من الكتاب منهم : أدمون ديمولاند الفرنسى ، والأستاذ استن فريمان الأنجليزى ، فى بحوث مستفيضة عالجوا فيها الحالات التى نشأت فى فرنسا وانجلترا وعطفوا ببعض الشىء على حالات نشأت فى غيرهما من بلدان أوربا . ولا جرم أن هذه الحالات تتشابه . فالأسباب التى تدعو الفرنسى أو الأنجليزى إلى هجر الريف والاقامة فى المدن ، أو بالأحرى حب التحضر (بمعنى المعيشة فى الحواضر) تكاد تكون نفس الأسباب التى تحمل المصرى على أن يفعل ذلك . غير أن النتائج تختلف باختلاف البلدان على مقتضى ما فى كل شعب من الاستعداد والصفات ، وفى الأكثر على مقتضى الثقافة التقليدية التى يختص بها كل شعب من الشعوب

ولسوف نبين فى مقال آت فكرتنا فى أثر الثقافة التقليدية فى الكيان الاجتماعى بكل أمة من الأمم . ونكتفى الآن بأن نقول إن شعبا كالشعب المصرى الزراعة ثقافته التقليدية منذ أبعد عصور التاريخ ، لابد من أن يتأثر بزيادة الميل إلى التحضر تأثراً عظيما لا يحسه شعب آخر ثقافته التقليدية غير زراعية . بل على الضد من ذلك أعتقد أن الشعوب التى تكون ثقافتها التقليدية صناعيـة أو تجارية ، يجب أن تحتمى بحياة التحضر صيانة لمصالحها العامة . أما تحضر شعب ثقافته التقليدية الزراعة ، فتلك هى الطامة الكبرى على كيانه الاجتماعى ؛ وتلك هى الطفرة المظيمة إلى أبشع صور التطفل الاجتماعى

ونحن نعلم علم اليقين بأن مدننا المصرية مدن غير صناعية بالمعنى المفهوم من ذلك فى أوربا . بل أعتقد وأظن أننى أعتقد بحق ، أن مدننا ليست إلا أسواقاً تستهلك فيها منتوجات الريف ؛ وهذه الحقيقة وحدها كافية لأن تظهرنا على أن ميلنا إلى التحضر ، مع التعطل عن العمل يرهق المنتج ويرهق السوق المستهلكة ؛ لأن المتعطل فى الواقع عبء على الجمعية ؛ ذلك بأنه قوة مستنفدة لا قوة منتجة من ناحية ، ولأن الحاجات التى يستنفدها لا ينتج ما يقابلها لصالح الجمعية من ناحية أخرى . وبذلك يصبح المتعطل عبئاً على الحاضرة التى يسكنها ، وعبئاً على العناصر المنتجة معاً . وهنا يتضاعف تطفله ، إذ يصبح متطفلاً باعتبارين : الأول أنه يزاحم أهل المدن ويشاركهم أرزاقهم من غير إنتاج من ناحية ، والثانى أنه يرهق العناصر العاملة فى الريف بأن يستهلك ولا ينتج ، وبالأحرى بأن يأخذ ولا يعطى

ومن تلك الحالات ما يسميه الاجتماعيون « الجشع الاجتماعى » Pleonexia ؛ ولا أريد هنا أن أطنب فى تعريف « الجشع الاجتماعى » ولا أن أناقش فى مختلف التعاريف التى وضعها المؤلفون الذين أتيح لى الاطلاع على مؤلفاتهم ، وإنما اقتصر على ذكر حالات يستطيع القارىء أن يدرك منها ، مطبقة على حالات تقوم بين ظهرانينا ، ما يقصد بالجشع الاجتماعى

وعندى أن أخبث مايؤدى إليه الجشع الاجتماعى من تكييف عقلية طبقات خاصة فى مجتمع ما بمقتضياته ، إنما ينحصر فى أن تتطفل جماعات ، لا أفراد ، على جسم الكائن الاجتماعى . وقد تلبس الجماعات التى تنتابها سورة الجشع الاجتماعى صوراً مختلفة ، فمن اتحادات تجارية إلى اتحادات صناعيـة إلى جمعيات علمية أو اقتصادية أو سياسية ، تتخذ التأثير فى عقلية الجماهير بمختلف الوسائل طريقاً تسلكه إلى غرضها الذى ترمى إليه ، والذى يجعلها جديرة بأن تنعت بأنها جماعات مصابة بجنون الجشع الاجتماعى . أما ذلك الغرض فينحصر فى أن تنال من الجمعية أقصى ما يمكن أن تصل إليـه من الربح المالى أو النفوذ أو السلطة أو الجاه أو الحكم بأقل جهد ممكن أن يبذل أو تضحية من ناحيتها

وفى مثل هذه الحالات تتضاعف خبائث التطفل الاجتماعى بأن يصير تطفلاً « مركباً » لا تطفلا بسيطا . ونعنى بالتطفل « المركب » أن هـذه الجماعات المصابة بجنون الجشع الاجتماعى يكون فيها عنصر خاص يعيش متطفلاً على جسم الجماعة نفسها . ذلك العنصر هو عنصر انتهازى لن تسلم منه جماعة أصيبت بذلك المرض الخبيث . فكما أن الجماعة تتطفل على جسم المجتمع ، يتطفل ذلك العنصر الذى هو « واجب الوجود » فيها بمقتضى تكوينها النفسى ، على بقية عناصرها

وتسير قافلة المتطفلين ، ولـكن إلى البوار الصرف . مثلها كمثل حييات زرعت على مادة هلاميـة فى زجاجة اختبار فى معمل من المعامل . فانها تتكاثر ثم تتكاثر ، حتى إذا ملىء فراغ الزجاجة واستحالت المادة الهلامية أجساماً حية انتكس الأمر وبدأت الأحياء تنحدر إلى الهلاك المحتوم

هذه إلمامات موجزة فى حالات نشاهدها قائمة من حولنا . فهل يمكن أن نتخذ التعليم أداة إصلاح نتقى بها بعض ما يكتنفنا من شرور وخبائث ؟ وهل يمكن للتعليم أن يؤدى إلى الأجيال المقبلة رسالة إصلاح عملى يرفع عن كاهلهم بعض ما نتوقع لهم من متاعب ؟ أظن أننا نستطيع أن نجيب بالايجاب ، وموعدنا البحوث الآتية

اسماعيل مظهر

ذكرى ساقيـــة !

للأستاذ على الطنطاوى

« ... ... كل ما فى الوجود يولد ويحيا ويموت : ألا تمر بالدار ألف مرة فلا تلتفت اليها ، ولا تحس بها . ثم ترى فيها انساناً يتصل قلبك بقلبـه ، أو يمتلىء فؤادك بحبه ، فاذا هذه الدار « تولد » فى فكرك و « تنمو » وتزداد لهذا الانسان حباً ، فتزداد الدار عندك حياة ؟ ثم ينزح الحبيب عن الدار ، فاذا هى « تموت » وإذا أنت تألم لموتها ، وتبكى فيها ذكريات لك عزيزة ، وماضياً لك حلواً ؛ ثم تمحو الأيام هذه الذكر ، وتنسيك هذا الماضى ، فاذا الدار قد عادت إلى العدم ، كما بدأت من العدم ، وإذا أنت تمر بها من بعد ألف مرة ، فلا تلتفت اليها ، ولا تحس بها ؟ ... »

من مقالة لى قديمة « على »

هى ساقية صغيرة عرفتها من يوم عرفت الدنيا ، تجرى فى رحبة (الدحداح) ، فى ظاهر دمشق ، فكنت أزورها دائماً ، وأجلس اليها راضياً وساخطاً ، مسروراً ومكتئباً ، شجىّ النفس وخلىّ البال ، فأحدثها حديث سرورى ورضاى ، وأبثها شجوى واكتئابى ، فأجـد فيها الصديق الوفىّ ، حين عزّ فى الناس الصديق ، والأخ المخلص حين ارتفع من الأرض الاخلاص ؛ وكنت أفرّ اليها كلما نابتنى من الأيام نائبة ، أو نالنى الدهر بمكروه ، فأجد فيها عزائى وأنسى ، وراحة نفسى . . . فزرت اليها أمس كما كنت أفرّ ، فاذا الأرض غير الأرض ، وإذا الساقية قد عدا عليها الزمان فمحاها ، وأقام ذار البستانى على رفاتها . . . فجلست على حافتها الجافة ، أودّع هذه البقعة الحبيبة إلىّ ، قبل أن تبتلعها المدينة الضاجة الصاخبة التى ابتلعت ما كان حولها من حقول واسعة ، ورياض وجنات ، وأشيع حياة لى فى هذه الساقية كلها سعادة واطمئنان ، عشتها كما تعيش الضفادع ، غير أن الضفادع تسبح فى ماء الساقية ، وتنام على كتفها ، وأنا أسبح فى ذكرياتى التى أودعتها حافتها ، وآمالى التى رأيتها من خلال أمواهها . . . وهل يعيش ابن آدم إلا فى الساقية والطريق ، والقمر والمئذنة ؟ أليس فى كلّ ساقية يجلس اليها ، وكل طريق يسلكها ، وفى القمر الذى يتأمل صفحته فى الليالى البيضاء ، والمئذنة التى يرى هلالها من شباك غرفته ، أليس فى كل ذلك

— أين نفسه — وقطعة من حياته ؟ . .

* * *

رحمة لك أيتها الساقية . . . منذ كم أنت تجرين وتسرعين ، أفبلغت غايتك بعد جرى القرون ، أم قطعك عنها عدو جبار ، أم أدركك عجز الشيخوخة وضعف الهرم ، فجف ماء حياتك ، كما تجف الحياة فى عروق الشيخ القحم ، وفروع الشجرة النخرة ، وجدر البيت الخاوى ؟

وهل كنت تجرين يوماً واحداً لو عرفت أن غايتك الفناء وأنك إنما تسعين إلى أجلك برجلك ؟ وهل كان يبنى البانى ، ويزرع الزارع ، ويعمل العامل ، لو عرف أن أجله أدنى إليه من أمله ، فبينما هو ينتظر إشراق الفجر ، إذ احتوته ظلمة القبر ، وبينما هو يحلم بالسراب ، إذ واراه التراب ؟

وهل كان يطمع فى الحياة طامع لو عرف أن كل يوم يزيد من حياته إنما ينقص من حياته ، فاذا بلغ كمال الحياة فقد صار إلى الموت ؟

إن الانسان يأمل أن يملك الدنيا ويعيش إلى الأبد ، وأنت تأملين أن تصيرى نهراً ثم تصبحى بحراً ، والله يريد أن تتم حكمته فى الحياة فيسعى كل ساع إلى الفناء ، يدعوه الأجل ، ويحدوه الأمل . . . ولا رادّ لما أراده الله !

* * *

وهل كنت تذكرين أيتها الساقية أصدقاءك وأحباءك وتحنين إلى ذكراهم ، وتبكين عهدهم ؟ أم قد أمات حسك تقلب الأيام وغدر الزمان ، فأقبلت تجرين ، لا تذكرين ماضياً ولا تحفلين حاضراً ولا تنتظرين آتياً ؟

وهل تذكرين يوم فررنا اليك من شيخ الكتاب القاسى ، وعصاه الطويلة التى كان ينال بها رؤوسنا وهو على سرير ملكه ، فى هذه الغرفة الضيقة ، الثقيلة الجدران المسدودة النوافذ ، الفاسدة الهواء ؟ لقد مللنا البقاء فى هـذا السجن الرهيب ، فشكونا إلى أهلينا فما وجدنا مشكياً فتجاوزنا (البحرة الدفاقة[1]) وتخطينا هذا السياج ، ولجأنا اليك فما وجدنا منك إلا الكرم والعطف والاحسان ؟ آمنت خوفنا ، وبدلتنا بمدرسة الشيخ وعصاه ، هذه الدنيا الفسيحة وهذه الحقول التى لا تنتهى ، فطابت أنفسنا بجمال الكون ، وانجلت أبصارنا بمرأى البساتين ، ونظرنا من هنا فاذا قبة النسر ومآذن الأموى تشرف علينا جليلة عظيمة ، فاستشعرنا جلال الدين وعظمته ، ونظرنا من هناك فاذا قاسيون يطل علينا مشمخراً عالياً ، تقوم عليه الدور البيضاء ، والقصور الحمراء ، فأحسسنا جمال الدنيا ، وسموّ المجد ، وعزة الغنى ... وأدركنا بعقولنا الصغيرة أن الشيخ كان على ضلال ، وأن أهلنا كانوا على خطأ ، وأن العلم قد يحصل فى الدنيا الواسعة ، والبقاع الجميلة ، أكثر مما يحصل فى السجون والكتاتيب ، وأن جمال الحقل ، أبلغ فى التهذيب من عصا الشيخ

فى تلك الساعة عرفتك أيتها الساقية ، فمنحتك الودّ والاخلاص ، وجعلتك صديقى إذ لم أجد فى بيتى ومدرستى صديقاً ، وكنت أرى طيفك فى أحلامى ، فأهش لك وأنا غارق فى منامى ، وأتخيل صفاءك وعطفك ، وأنا بين يدى الشيخ الجبار ، يقرع رأسى بالعصا ، ويصرخ فى وجهى بصوته الأجش الخشن :

ــ يا ولد يا خبيث . . . والله إن عدت الى الهرب كسرت ساقيك ، فلا أرد عليه ، وإنما أستر وجهى بكفى ، وأضحك بصوت غريب ، فيظننى أبكى ، فيدعني ... وينصرف الى غيرى فأنظر من بين أصابعى ، حتى إذا رأيته قد غفل عنى قفزت إلى الشارع ، فاختبأت فى (جامع التوبة) أو أخذت طريقى اليك ، فآكل من الثمار التى حولك ، وأشرب من مائك ، وأصافحك بيدىّ شاكراً ، وأمسح بكفيك وجهى . . . هل تذكرين ذلك أيتها الساقية ؟ . .

هل تذكرين كيف جئناك بعد ذلك ، وقد تخلصنا من الشيخ ودخلنا المدرسة ، فوجدنا ساحة رحبة ومعلمين كثيرين ، وحصصاً قصيرة ، ولكننا لم نجد عطفاً ولا ابتساماً ؛ كان معلم الحساب يحبب الينا شيخ الكتاب ، حتى نراه إلى جنبه نعيماً ، كنا نرى طيفه أمامنا حيثما سرنا بشاربيه الكبيرين ، وتقطيبه الدائم ، ونظاراته التى يحدرها أبداً إلى أرنبة أنفه ، وصوته الذى يشبه صوت من يتكلم من وسط برميل ، فكنا نرتجف من خياله ، ونخشاه أبداً ، إلا إذا أصبحنا فى حماك ، فاننا نأمن ، ونطلق أنفسنا على سجيتها ، فنسخر من المعلم ، ونقلد الشيخ ، ونمرح ونعدو ، ثم نعود إلى الدار ونحن ممتلئون قوة ونشاطاً ، فاذا سألنا الأهل : أين كنتم ؟ قلنا : كنا فى المدرسة ، وإذا سألنا المعلم قلنا : كنا فى البيت ! فيصدقوننا جميعاً . . . أوليسوا قد حملونا على الكذب حملا حين كرّهوا الينا العلم ، ودفعونا إلى الفرار ، وعاقبونا على الصدق ، ولم ينتبهوا إلى الكذب ؟

(١) كانت يومئذ آخر حدود الشام من جهة القبية

وهل تذكرين يوم جاءت دمشق أولُ سيارة ، وكنا جالسين حولك نتحدث حديث الحرب وما يمكن أن يصل الينا من أخبارها ، فما راعنا إلا عربة غريبة الشكل ، تسير من غير أن يجرّها حصان ، فطار الفزع بألبابنا ، وفررنا نحسب أن الجن تسيرها ، ثم سمعناهم يدعوننا ، ورأينا ضباطاً تلمع الأوسمة على صدورهم والسيوف على جنوبهم ، فأمرونا أن نلقي الأحجار فيك أيتها الساقية لنمر عليها « الأطنبيل » فأطعنا وفعلنا مكرهين ؟ ومن كان يستطيع أن يخالف أمر ضابط من ضباط جمال باشا ؟ . . .

فلما صرت هرعنا إلى دورنا نخبر أهلنا أن عربة تمشي من غير أن يجرها حصان ... فتنبري لي عمتي ، وتكذبني وتسبني :

— اخرس يا كاب ، يا كذاب ... إن هذا مستحيل

ولكن عمتي التي أبت أن تصدق أن في الدنيا سيارة تمشي بنفسها ، قد عاشت حتى رأت الكهرباء .... والتلفون .... والرادبو .... ورأت الدبابة والمصفحة والمتراليوز ... ثم رأت أثر الحضارة في أنقاض دمشق ... فصارت متهيئة لتصدق كل شيء !

وهل تذكرين كيف عدنا اليك أيتها الساقية فاذا أنت حردة غضبى ، قد وقفت عن سيرك ، وضللت طريقك ، فتطلعت الى اليمين والشمال ، والأحجار قائمة تسد عليك سبيلك فعالجناك واعتذرنا اليك ، وطيبنا قلبك ، وفسحنا لك السبيل ، فجريت مضطربة ، متغيرة الوجه ، تبكين أيامك الماضية ، وتخافين ما يأتي به الزمان ؟

وهل تذكرين يوم كنا حولك ونحن آمنون مطمئنون ، فاذا الأرض قد ارتجت ، وإذا الجيش التركي الذي كنا نخافه ونخشاه قد ذلّ بعد عزّ ، وضعف بعد قوة ، وفر متفرقاً حائراً لا يدري أين يقصد ، ومن ورائه العرب والانكليز ، يدخلون الشام ظافرين ، فسررنا وفرحنا ، وصفّقنا وهتفنا . ولكنك جريت واجمة حزينة ، لأن حياتك الطويلة وما رأيت من دولة الدول ، وهلاك الملوك ، علمتك أن من يؤمن لمن لم يتبع دينه ، كمن يدخل النار ويرجو ألا تحرقه النار ؟ ثم حققت الأيام ظنك ، وصدقت حدسك ، فقلنا : ياليت ! « وهل تنفع شيئاً ليت ؟! »

وهل تذكرين يوم كنا جالسين اليك ، وحولنا هذه الحقول تمتد آمنة الى ما لا يدركه البصر ، وإذا بعدو جبار ، يأتي من وراء الحقول الآمنة ، فيشقها شقاً منكراً ، ويثغر فيها ثغرة هائلة حتى إذا بلغك ألقى عليك نظرة ازدراء واحتقار ، ثم سار في طريقه حتى بلغ سفح الجبل ، فتمطى ثم تمدد ثم نام نومة الأبد ؛ وإن رأسه لفي الصالحية ، وإن رجليه لفي حيّ النصارى ... فلما رآه أحبابك وأصحابك آثروه عليك ، فلم يعد أحد يستطيب الجلوس إلى ساقية صغيرة ، بعد أن فتح (شارع بغداد) ليجول فيه الشبان كل يوم (بين حي النصارى والصالحية) مرجلة شعورهم ، مصقولة وجوههم ، يسيرون مائلين مميلين ... فصبرت وتجلدت ، ورجعت تجرين كما كنت منذ ثلاثة آلاف سنة .... كأنك لا تحفلين شيئاً ؟

* * *

لقد عشت عزيزة مكرمة ، منذ وطئت هذه الأرض أول مرة ، فلم ينتهك حرماتك أحد ، ولم يعث في حرمك الآمن عائث ، رغم الحوادث والأرزاء ، أفانتهى بك الأمر أن يقتلك بسعاني ؟ ... لقد سقيت صفا البستاني وأباه وجده ومن قبلهم إلى أربعة آلاف جد ، أفكانت عاقبة هذا الاحسان أنه لم يبن بيته إلا على رفاتك ، ولم يكن أساس منزله إلا قبرك ؟ لا بأس أيتها الساقية ، فان الانسان مذ كان منكر للمعروف جاحد للاحسان ...

لا بأس ، فان ملكاً لن يدوم ، ولقد رأيت الترك والروم واليونان ، فهل رأيت ملكاً يبقى ، أرأيت الدنيا دامت على أحد ؟ أما كانت دولة الترك عظيمة ؟ أما جلت دولة الرومان ؟ أبقى من هذا كله شيء ؟ لا ، يا أيتها الساقية إنه لا يبقى إلا الاسلام ، لأنه من ملك الله الباقي ...

* * *

رحمة لك أيتها الساقية ، وسلام على تلك الأيام الجميلة التي عشت فيها إلى جنبك ، لا أعرف هم الدنيا ولا نكد الحياة ، لقد كنت أفرّ اليك من عصا الشيخ ، وعقاب المعلم ، فتؤويني وتحميني ، فلمن أفر اليوم من حياتي التي ضاقت علي ، ونفسي التي برمت بها ؟

لقد ضعتُ كما ضعتِ أيتها الساقية ، وجفت آمالي كما جففت ، وانتهى بي المطاف أن أكون شيخ كتاب ! ولكن لا بأس أيتها الساقية . . . فان الدنيا لا تدوم على حال . فرحمة لك ، وعلى ذكراك السلام !

علي الطنطاوي

أندلسيات :

٤ ـ ابن بسام صاحب الذخيرة
والشاعر أبو مروان الطُّبْني

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

أما كتاب الذخيرة فليس أصدق فى التعريف به مما جاء فى تصديره أو مقدمته أو مدخله أو خطبته ، وإذ أن خطبة هذا الكتاب طويلة فلنجتزىء بذكر ما يهمنا منها ، وهنا ننبه القارىء الى أن مستهل هذا الكتاب الموجود فى النسخ الموجودة بدار الكتب المصرية هو غير مستهل الخطبة الحقيق . وإليك هذا المستهل كما هو فى النسخ المذكورة :

« الحمد لله الذى أبرز قمر الآداب فى سماء الكمال ، وجعل لها أهلا كالنجوم يقتدى بهم ويهتدى مدى الأيام والليال ، وصلاةً وسلاما على السيد السند الرسول المفضال ، وأصحابه وأزواجه والآل ، ما صدح هزار الفصاحة على أغصان فنن البلبال ، وبعد : فيقول صاحب العزلة والانفراد أبو عبد الله عبد الملك بن المنصور بن عبد البر بن عدى بن هشام بن أحمد بن بسام : أنى كلِفتُ منذ زمان بأن أعد محاسن أهل جزيرة الأندلس ، ورأيت العزلة والانفراد عن هذا العالم فى هذا الزمان ، واجبةً بحسب الامكان ، وأردت قطع التردد عن مجالسة الرجال ، لاسيما والفكر مشغول فى بحر التفكر فيما كلفت به وادكرته بعد أمة . ولا أدعى أنى اخترعته ولكنى لعلى أحسنت حيث اتبعت ، وانتقيت ما جمعت ، وتألفت على الشارد ، واغتنيت عن الغائب بالشاهد ... الخ الخ » وهذا كلام كما ترى غث بارد مفسول لا يصدر عن مثل ابن بسام ، ولعله من تلفيق حَمْقَى النساخين ، يضاف الى ذلك أنه ورد فيه اسم ابن بسام خطأ فليس اسم ابن بسام عبد الملك ابن المنصور ... وإنما اسمه علىّ وكنيته أبو الحسن لا أبو عبد الله ... إذن هذا كلام مفتعل . ومستهلّ الخطبة الحقيقى هو كما ورد فى نفح الطيب [1] ما يأتى :

(١) ج ١ ص ٨٠٠ طبع أوربة

« أما بعد » حمداً لله ولى الحمد وأهله ، والصلاة على سيدنا محمد خاتم رسله ، فان ثمرة هذا الأدب ، العالى الرتب ، رسالة تنثر وترسل ، وأبيات تنظم وتفصل ، تنثال تلك انثيال القطار ، على صفحات الأزهار ، وتتصل هذه اتصال القلائد ، على نحور الخرائد ، وما زال فى أفقنا هذا الأندلسى القصى إلى وقتنا هذا من فرسان الفنَّين ، وأئمة النوعين ، قوم هم ما هم طيبَ مكاسر ، وصفاء جواهر ، وعذوبة موارد ومصادر ، لعبوا بأطراف الكلام المشقَّق ، لعب الدجن بجفون المؤرق ، وجدّوا بفنون السِحْر المنمّق ، جد الأعشى ببنات المحلق ، فصبوا على قوالب النجوم ، غرائب المنثور والمنظوم ، وباهوا غرر الضحى والأصائل ، بعجائب الأشعار والرسائل ، نثر لو رآه البديع لنسى اسمه ، أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه ، ونظم لو سمعه كُثَيِّر ما نسب ولا مدح ، وتتبعه جَرول [1] ما عوى ولا نبح ، إلا أن أهل هذا الأفق ، أبوا إلا متابعة أهل الشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتاباً محكما ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة ، مرمى القصيه ، ومناخ الرديه ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يصرف فيها لسان ولا يد ، فغاظنى منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك ، وأخذتُ نفسى بجمع ما وجدت من حسنات دهرى ، وتتبع محاسن أهل بلدى وعصرى ، غَيرةً لهذا الأفق الغريب أن تعود بدورُهُ أهلَّة ، وتصبح بحورُهُ ثماداً مضمحلة ، مع كثرة أدبائه ، ووفور علمائه ، وقديماً ضيعوا العلم وأهله ، ويارب محسن مات إحسانه قبله ، وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل المشرق بالاحسان ، وقد كتبت لأرباب هذا الشان ، من أهل الوقت والزمان ، محاسن تبهر الألباب ، وتسحر الشعراء والكتاب ، ولم أعرض لشىء من أشعار الدولة المروانية [2] ، ولا المدائح العامرية [3] ، إذ كان ابن فرج الجيانى [4] قد رأى رأيى فى التصنيف ، وذهب مذهبى من الأنفة ،

(١) هو الحطيئة

(٢) دولة بنى أمية بالأندلس

(٣) نسبة للمنصور بن أبى عامر

(٤) سنترجم له

فأملى فى محاسن أهل زمانه ، كتاب الحدائق معارضاً لكتاب الزهرة للأصفهانى ، فأضربت أنا عما ألّف ، ولم أعرض لشىء مما صنّف ، ولا تعدّيت أهل عصرى ممن شاهدته بعمرى ، أو لحقه أهل دهرى ، إذ كل مردّد ثقيل ، وكل متكرر مملول ، وقد مَجّت الأسماع « يادار ميّة بالعلياء فالسّند » إلى أن قال بعد ذكره أنه يسوق جملة من المشارقة مثل الشريف الرضى والقاضى عبد الوهاب والوزير ابن المغربى ، وغيرهم ممن يطول ما صوّرته ... وإنما ذكرت هؤلاء ائتساء بأبى منصور ، فى تأليفه المشهور ، المترجم بيتيمة الدهر ، فى محاسن أهل العصر ...

هذا هو كل ما أورده المقرى من خطبة الذخيرة ، ومن هذا الموضع تبتدئ بقية الخطبة المثبتة فى النسخ الموجودة فى دار الكتب ، فاذا أردت أن تجمع أطراف خطبة الذخيرة فهذا الذى أوردناه هنا هو الشطر الأول منها ، لا ما هو مذكور فى النسخ التى بين أيدينا حتى إذا وصلت إلى هذا الموضع وهو : ـ وإنما ذكرت هؤلاء ائتساء بأبى منصور فى تأليفه المشهور المترجم بيتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر ـ وهـذا هو ما أورده المقرى واقتصر عليه ـ فارجع الى هذا الموضع فى خطبة الذخيرة الملفقة وامض منه الى نهايتها وبذلك تجتمع لك الخطبة وتكمل ، وهى خطبة على طولها بارعة جميلة ، فارجع اليها فى الذخيرة إن شئت ؛ وما حفزنا الى القول عليها وإيراد ما أوردناه منها إلا هذا التخليط الذى اعتور النسخ التى بأيدينا . . .

***

هذا وقد كسر ابن بسام هذا الكتاب على أربعة أقسام : القسم الأول لأهل حضرة قرطبة وما يصاقبها من موسطة بلاد الأندلس ، وهذا يشتمل من الأخبار وأسماء الرؤساء وأعيان الكتاب والشعراء على جماعة . . . الخ الخ ، والقسم الثانى لأهل الجانب الغربى من الأندلس وذكر حضرة اشبيلية وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط الرومى وفيه من الأخبار وأسماء الرؤساء وأعيان الكتاب جملة موفورة . . . الخ الخ ، والقسم الثالث ذكر فيه أهل الجانب الشرقى من الأندلس ومن نجم من كواكب العصر فى أفق ذلك الثغر الأعلى الى منتهى كلمة الاسلام هنالك ... الخ الخ ، والقسم الرابع أفرده لمن طرأ على هذه الجزيرة من أديب شاعر وكاتب ماهر ووصل بهم ذكر طائفة من مشهورى المشارقة ممن نجم فى عصره ... الخ الخ

« وبعد » فانا نضرع إلى الله سبحانه أن يوفق جماعة المستشرقين الذين أزمعوا طبع هـذا الأثر النفيس حتى يخرجوه سليما معافى بارئاً مما ألمّ به من التحريف الذى شوه محاسنه ، وكاد يطمس معالمه إنه سميع الدعاء

عبد الرحمن البرقوقى

منشىء مجلة البيان ورئيس قلم المراجعة بمجلس النواب

الهاربون من القضاء

للأستاذ عبد الرحمن شكري

أتظل موهون الجنانِ مروَّعاً ... قلقاً من الآفات والأقدار
تخشى الحياة ولست تخشى ميتة ... هبها نصيب الموت في الإصغار
قلقاً تُطِلُّ على الحيـاة كأنما ... منها وقفت على الشفير الهاري
تخشى الحياة وكذبها وسَفالها ... وصيالها في قسوة الغـدّار
والحي يأكل من حياة مثيله ... لحس الضواري للدم المدرار
وتطاول المغمور ينحو نابها ... كتطاول الغرقان في التيار
متشبثاً منه بعِطفَيْ سابح ... ليجره لمهالك وبوار
كل يخال الدهر إن هو عاقه ... خطب الجميع بقاصم الأعمار
والموت يعصف بالدهور وأهلها ... فكأنها صور الخيال الساري
فعلام تخضع للتناكص والأسى ... وتخاف حكم الله في المقـدار
والقلب يلمسه الأسى فيهزه ... وكأنه وتر من الأوتار
وعلام ترتقب الزمان وصرفه ... والغيب وهو مُحجَّبٌ متواري
عمري لوان الغيب عاجل وانقضى ... لقرأته خبراً من الأخبار
فمتى ترى صور الحياة صحائفاً ... وكأنها سِفرٌ من الأسـفار
لا إنها أمر تزاول صرفه ... وتظل تعـدو منه في مضمار
أو تغتـدى بين الأنام مغامراً ... تسعى على سنن لهم وشـعار
فاذا أسيت أسيت طرفة ناظر ... وإذا نسيت نسيت كل عثار
وكذبت ما كذب الأنام ولم تجد ... في قسوة من خسـة وشنار
ونسيت ما جلب الزمان لأهله ... من محنـة أو مهلك ودمار
فتقول للقلب المَرُوع إذا نزا ... حذر الحياة وصولة الأشرار:
يا هارباً من صولة المقـدار ... أتراك تفلت من يد الأقدار
اهرب إذا ما اسطعتَ في أزل الدُّنَى ... أو في مدى الآباد والأدهار
أو في الممات وما تلاقي خلفه ... بين الفناء ومعقـل الأسرار
تعدو ويدركك الذي خلّفته ... كالليل ليس يفر منه الساري
كلٌّ من العيش المَرَوَّعِ هارب ... لو فاز خلقٌ في الدنى بفرار
بالفن أو بالعلم أو بمجانة ... أو بالسطا والجنـد والأنصار
فاذا القضاء منهم ونفاذه ... كحصاد كل وسائل المختار
سل صفحة التاريخ كم قوم به ... أجراه مجرى الدهر في مضمار
أقوام أدهار مضت بعض لها ... ذكرى وبعض مالها من داري
قد أُبدلوا طبع السَّفال بأنفس ... من طبعها المتصاعد السَّوّار
صاروا إذا غضبوا وإن سُرُّوا وإن ... درجوا لأمرٍ ثالثٍ بمدار
يتمرَّغون مجانة نفوسهم ... وجسومهم كمزابل الأقذار
وصموا الشباب ولم يكن من طبعه ... خلق اللئيم العاجز الغـدّار
إن الشباب مروءة وسـذاجة ... وترفع ينبو عن الأوضار
تخِذوا السَّفَالَ مِجَنَّهُمْ ليصونهم ... من صولة الغـلاّب والمغوار
فغدا السَّفالُ سعادةً ومسرة ... عبث الخنا ومجانة الفجار
نبذوا الحياء وكيف ترجو أمة ... للنائبات مجانة العُهار
قد خِيلَ في فقد الحياء رجولة ... فقد الحياء رجولة الدُّعار
طبع المجانة عم حتى خلته ... كيداً يحاك عليهم بِسَرَارِ
أم وُرِّثوه عن الجدود غنيمة ... يطفو الذليل بها على الأقدار
ويُذِلُّ من عنت الحياة وضيمها ... بسعادة المُجانِ والفجار
وتكايدوا كيد العبيد ولم يكن ... كتنابُذٍ بطبائع الأحرار
واستمرأوا مرعى الغباوة والخنا ... إلفَ السجون لطول عهد إسار
هزموا الدهور الغازيات بهزلهم ... فمضت وظلوا رهن عُقْرِ الدار
فاذا الدهور جديدة قهّارة ... وإذا اللئام فريسة الأدهار
درجوا على دَرَجِ الحياة إلى الردى ... من بعد جهلٍ راقهم وصَغارِ

من الشعر الرمزي

رمز الخريف

مهداة إلى الشاعر « أنور العطار » صاحب مقطوعة الخريف المنشورة في العدد ١٣٨ من الرسالة

للأستاذ خليل هنداوي

خلِّ عنك النحيبَ ، فالعيش ثغر ... ضاحك ، والحياةُ حلم نضير
لا أرى في الخريف خطباً نكيراً ... إن تمت الخريف خطاب نكير
هل رأت في الخريف عيناك إلا ... وحشة كالتي حوتها القبور
هل رأيت العش إلا خراباً ... « هجرتها على الليالي الطيور »
هل رأيت الحياة إلا سراباً ... كل ما حوله أسى وغرور ؟
لا تقل : يهمد الثرى ! فهو حي ... إنما للحياة فيه فتور
إن في باطن الخريف ربيعاً ... فيه من روعة الربيع الكثير
قد تمشت فيه الحياة بصمت ... واستفاقت تحت التراب الجذور
ورويداً ! كل المسارب تخضـ ... ـرُّ ، وتهتز في المروج زهور
وإذا بالحياة تضحك ضحكا ... لخفيف ، ونغمة ، وخرير
كل شيء — فيه — يغير ثوباً ... وجمال الطبيعة التغيير
ما عليها لو بدلتنا قشوراً ... بقشور ، هل الحياة قشور ؟
لم تزل في عشاشه بهجات ... وأزانيم في الفضاء تطير
حيث يروي العصفور لحناً ويصغي ... لصداه ، فيجفلُ العصفور
إن في صفرة الخريف فناء ... فيه رمز إلى البقاء يشير
لا تمثل سماء كونك بالنعـ ... ـش عليه من الغيوم ستور
إن كوناً تنكَّب الفن عنه ... هو كون مستقبح مهجور
فاتخذ عالماً تطوف الشعاعا ... ت عليه والنور فيه يمور
وعصافيره على الدهر تشدو ... وأزاهيره يفوح منها العبير
عالماً فيه روعة ورواء ... وفضاء يشع فيه الحبور
عالماً واسعاً تضيق به الآ ... فاق ، فيه الرضا وفيه السرور
لا تخف سطوة الخريف إذا انقض ... على دوحك الشجير يغير
قل له : نق تربتي من هشيم ... ماله في الحياة إلا صرير
قل له : عرِّ دوحتي من بقايا ... طرحتها لكي تعيش زهور
قل له : عرِّ خاطري من تقاليـ ... ـد أباها عقلي وعاف الضمير
فمن الشجو والخريف حياة . ... ومن الحب والربيع قبور
ما على اللحن أن يكون جميلا ... وهو لحن — كما ذكرت — قصير
كن جديداً على الحياة ففي الجِـ ... ـدَّة يهتز كونك المسحور
لست أبغي قيثارة تتشكى ... لحنها الدمع والأسى والشعور
أعطها للخريف ، وانحت سواها ... ذات لحن تهوى عليه الصدور
هات قيثارة تسيل غناء ... لا يرى منفذاً إليها الدثور
هات قيثارة لها نغمات ... « هي روح الحياة والإكسير »
هي فوق الأفراح حين تغني ... وهي فوق الأحزان حين تثور
هي روح ترى الظلام وتزهو ... بضياء الحياة حيث ينير
هي نور يكسو الطبيعة لوناً ... حين يخبو من الطبيعة نور
هي لحن يطغى على كل لحن ... حيث لا معزف ولا مزمور
هي طيب يبث في الوهد عطراً ... حين لا يغمر الوهاد عطور
هي فن يجلبب الكون بالحسـ ... ـن إذا ما طغت عليه الشرور

(دير الزور) خليل هنداوي

أغلال تتحطم !

وثاروا فجن جنون الرياح ... وزلزلت الأرض زلزالها
وأهيب ما كان بأس الشعوب ... اذا سلح الحق أعزالها
« شوقي »

ما اغترابي عن الحمى وابتعادي ... كبدي في اللهيب أخت فؤادي!
نبأ هزني وهاج شجوني ... رائح بالشجون بالدمع غادِ
ما تراني إذا سجا الليلُ أسوا ... ن لهيفَ الفؤاد نضو سُهاد
أسألُ النجمَ همسةً عن عرين ... فتك الظلم فيه بالآساد
وأناجي الرياح ماذا لديها ... عن رفاق الصبي وعن أندادي
إعصفي يا رياحُ ما شئتِ هوجاً ... كلُّ نفسي عواصف وعَواد
اللظى في الحشا وتحت جفوني ... وعلى مفرشي وفوق وسادي
إن أنم ساعة يقلبني الحُلـ ... ـم على جمره وفوق قتادي
أألذ الكرى وطرفي دامٍ ... وخفوقي في لهفةٍ واتقاد
وبلادي تئن من عبثِ الجو ... رِ وترغي كالليثِ في الأصفاد
تمهرُ المجد أُسدها ثم تجري ... للمعالي على رؤوس الصِّعاد

***

خطّموا أيها الرعاة المزامي ... ر وكفكف دمع الهوى يا حادي
ثم سيروا خلف القطيع خشوعاً ... موكباً من جلالة واتّئادِ
أيها البلبل الطروبُ دع الأغ ... صان تبكي واسكتْ عن الإنشاد
طِرْ إلى حيث وُسِّدت شهداء ... في بطاح العُلى، طوالُ النِّجاد
فاشدُ في مربض الضحايا وغرّد ... فوق أشلائها الظّماء الصوادي
واتلُ فوق الرؤوس أعذبَ لحن ... فلحونُ الطيور خير ضماد
الوفاء الوفاء يا بلبل الأيـ ... ـك! أتشدو وليس في الشام شادِ؟
بل أقم أيها الرفيقُ وترنّم ... وتنقّلْ بين الرُّبى والبوادي
وأنشد ما شئت عند مُنبلج النو ... رِ، طروباً، وفي مثارِ السواد
ربما كنت ها هنا أيها البا ... بلُ تبكي على شهيدٍ جوادِ...
أيها الزهر في الرُّبى! أغمِض الأجـ ... ـفان حزناً واذبُلْ على الأعواد
أو فيمّم روض الضحايا ورفرفْ ... فوق أعراسها وفي الأعياد
كيف تزهو والزهر في النيرب السا ... جم باكٍ والورد في الشام صادِ؟!
بل تفتّحْ هنا وزُفّ ندياً ... وانشر العطرَ منك في كل واد
ربما كنت أيها الزهرُ تُروى ... من دماءٍ جاءتك مثل العِهاد...
يا ثرى موطني تباركت ترباً ... أنتَ من أدمُعٍ ومن أكباد
حيثما ألتفت ثمّ ضريح ... لشهيدٍ أو ساحة لجلاد
كم شهيد كأنه بسمةُ المجـ ... ـدِ وريحانة العُلى والجهاد
خرّ في حومةِ النّضال ينادي: ... موطني موطني! بلادي بلادي
مات واسمُ الحمى على شفتيهِ ... كالندى فوق ذابلِ الأوراد
أوهو اسم الحبيب طوّف معسو ... لاً بثغر المحبّ عند الرُّقادِ

* * *

أيها الشرق هبّةً للمعالي ... طال لُبثُ السيوف في الأغماد
إنما العيشُ صرعةٌ في جهادٍ ... والرّدى في تذلُّل وانقياد
صرخةً أيها الأسيرُ تفرى ... لصداها حبائلُ الصياد
تجفلُ العاديَ المغيرَ وتهوي ... صاعقاتٍ على رؤوس الأعادي
أيها الشرق إنما أنت مجلى النـ ... ـورِ والكونُ في ثياب الحداد
إنما أنت مهبطُ الوحي والأجـ ... ـيالُ تلهو بها أكفُّ الجلاد
درج الأنبياء فوق روابيـ ... ـكَ، وشعّت منائرُ الإرشاد
علّموا الكون رحمة العبد للعبـ ... ـد ونبذ الذحول والأحقاد
وهدوه سُبْلَ المحبة والخيـ ... ـر ووقّوه من شرور الفساد
فاهتدى بعد حيرة وضلال ... وصفا بعد حلكة واربداد

أيهاذا الغرب المدلُّ رُويداً ... والنُّهى لو عقلت في الإرواد
شدّ ما ترهق الضعيف عذاباً ... تتداعى له على الأطواد
فكأن الأيامَ ليست توالى ... وكأن الزمان ليس يعادي
إيه ياغرب، والحديث شجون ... والدُّنى بين هدأةٍ ولداد
ما جنينا حتى صببت علينا ... مُرهقاتِ الأذى والاستعباد
كيف تنسى أيام كنا نجوماً ... ساطعاتٍ في كلّ صقع وناد
يوم كنا تاجاً على مفرق الأر ... ض وشمساً من حكمة ورشاد
والزمان الحرونُ بين يدينا ... مُستذلُّ الشُّرُف سهلُ القياد
فملأنا السماء والأرضَ نوراً ... وأفضنا عليك أفضل زاد
وملكنا بالعدل ناصية الكو ... نِ زماناً، أغوارَه والنِّجاد
ثم جار الزمان وانقلب الدهـ ... ـر فنامت على الغصون الشوادي
وخبا للخلود أعذب لحن ... وكبا للرُّقي خيرُ جواد

* * *

يا جمال الحياة، يا بهجة الكو ... ن وإرث الأجداد للأحفاد
يا دموع الأسير، يا غضبة الليـ ... ـث على القيد، يا رجاء العباد
يا ضياء النفوس، يا شمس ياحرّ ... ية الغابِ، يا ابنة الآباد!...
نحن زهرٌ وأنتِ أعذب طلّ ... نحن عمي وأنتِ أرحمُ هاد
قد مهرناك من دماء غوال ... وفرشنا الطريق من أجسادِ
فاخطري فوقها وتيهي دلالاً ... واسحبي الذيل في الربى والبوادي
وطئي أعيناً ودوسي قلوباً ... كلها من تمرّدٍ وعنادِ
وامرحي فوق أرؤس لك ذلت ... لا لباغٍ مضرّج الناب عاد
حلّقي فوقنا ورُفّي لنحيا ... قد سئمنا الحياة في الأقياد
واسطعي في القلوب نوراً من الله ... وثوري بأنفس المجـادِ
صدئ القيد في الأكف وفي الأقـ ... ـدام، والغُلُّ حزّ في الأجياد

* * *

أيها الغرب قد أنفنا من النو ... م وضقنا بالذل والاصفاد
فوثبنا إلى النضال أسوداً ... مثل آبائنا العلى الأمجاد
وخضبنا دغالنا بالدم الحر ... وضاق الفضاء بالأجناد
أزهِق الشرقَ ذلّةً وأذقهُ ... كل ما شئت من أذى واضطهاد
نحنُ نبغي الحياة، والسيفُ لن ... يُغمَدَ يا غربُ قبلَ نيلِ المرادِ

(ابن دمشق)

القصص

دراسة من اسخيلوس

محاكمة أورست

أو

ربات العذاب

(الدراما الثالثة من الأورستية)

The Eumenides (١)

أول كوميدية إلهية مسرحية عرفها التاريخ

للأستاذ دريني خشبه

خلاصة الدرامتين الأوليين

« ذهب أجممنون ملك آرجوس لفتح طروادة ولكن الريح العاصف حالت دون قيام الأسطول فضحى بابنته أفجينا ليهدأ ثائر البحر وأغضب بذلك زوجته كليتمنسترا التي انتهزت فرصة غيابه واتصلت بألد أعدائه إيجستوس اتصالا شائنا ونفت ولدها أورست حتى لا يعكر عليها صفو غرامها — ويعود أجممنون بعد عشر سنوات فتقتله زوجته وعاشقها... وتمضي عشر سنوات أخرى فيكون أورست قد شب واشتد عوده فيعود ليثأر لأبيه من أمه ، فيلاقي أخته عند قبر والده تصب عليه خمراً مرسلة من الملكة بسبب رؤيا مفزعة خلاصتها أنها رأت نفسها تلد أفعى وتضمها الى صدرها فتنفث فيه سمها ويتعارف الأخ الى أخته ويتفقان على الخطة ويطرق أورست باب القصر الملكي متنكراً فتلقاه الملكة ولا تعرفه مع أنه ابنها فيدعي أنه قادم من لدن الأمير الذي كانت قد نفت ولدها عنده وأن ولدها قد مات . . . ! وهكذا تجوز الحيلة على الملكة فترسل في طلب ايجستوس لتزف اليه الخبر ولكن أورست يلقاه منفرداً ويقتله ، فلما تجيء الملكة وتشهد مقتل حبيبها تعرف كل شيء وتعرف أن القاتل ولدها لا غيره ... ثم ينقض أورست على أمه فيقتلها بعد جدل طويل

ولكن أورست يكون قد ارتكب أكبر جريمة تعاقب عليها الآلهة وهي قتل الوالدين فتتمثل له هامة أمه وتفزعه وتروعه حتى يجن جنونه فينطلق الى معبد أبوللو يتوسل اليه أن يحميه لأنه هو الذي أمره بانفاذ هذه الجريمة ... ومن هنا تبدأ الدراما الثالثة »

— ١ —

المنظر : « في الأديتون (١) — صومعة أبوللو — في دلفي »

نحن في الأديتون . . . في مثوى أبوللو الخاص ؟ . . وقد قامت بيثونة الآله الكبير ، سيد الشمس ، ورب القوس ، وصاحب السهام الذهبية . . . تصلي للأرض المباركة ، ولابنتها ذميس ، ولاحدى بنات التيتان . . . فوبيه . . . التي تشبه باسمها فوبوس . . . الذي هو أبوللو . . .

والبيثونة ، كاهنة أبوللو ، ذات لسان رطب ، وهي لا تكل من أن تستطيل صلاتها ، فتذكر ميترفا وما روى الناس من أساطير عن مينرفا . . . و . . . تنتهي بعد لأي صلواتها . . .

وندخل معها إلى مثوى أبوللو ؛ ولكنا نخرج مذعورين وجلين ، كما تخرج هي وجلة مذعورة ... لأننا نرى أورست المسكين راكعاً بين يدي تمثال الآله يبكي ... ويصلي ... ويضرع إلى أبوللو أن يحميه من ربات العذاب... الزبانيات الضاريات ... اللائي رحن يطاردنه في كل حدب ، ويأخذن عليه سبيله في كل صوب ... ويوددن لو تمكن منه فيرأن لحمه ، ويحطمن عظامه ، ثم دفعنه في جحيم فليجتون ، بما قتل أمه وأغضب الآلهة

وتذعر البيثونة لأنها ترى إلى إحدى يدي أورست ملطخة بالدم الذي سفحه ، وترى إلى يده الأخرى تحمل غصناً غضاً نضيرا . . . هو غصن الزيتون ؟ ! وكيف يجتمع الدم المسفوك ، وغصن الزيتون ؟

مسكين أورست ! لقد ركع بين يدي التمثال يصلي ويبكي ، ومن حوله الزبانيات الضواري يتربصن به ... هؤلاء الجرجون السفاحات ... اللائي تتحوى الأفاعي في رؤوسهن ، ويغلي السم في أنيابهن ، ويضطرب الموت الأسود في أظفارهن ! !

---

(١) أو Furies وهن اخوات ثلاث منهن واحدة اسمها ديرجيه والأخريان ايرنيس ويعرفن بهذه الأسماء كذلك (ألكتو — تيسيفونه — ماجيرا) وهن موكلات بتعذيب الأرواح الشريرة الآثمة وايصالها الى نهر فليجتون الملتهب بالحمم ويكون هنا خورس الرواية — ويشبهن الغول عندنا في الميثولوجيا المصرية

(١) Adyton وبالاغريقية Adytum

ويسقط في يد البيثونة ، ولكنها تدعو لولاها أبوللو أن يحمى بيته من هؤلاء المتمردات

— ٢ —

وينفتح باب الصومعة على مصراعيه ، فنرى أبوللو نفسه ، ونرى أورست المعذب مايبرح يبكي ويصلي ، ونرى إلى الجرجون من حوله يكدن يبطشن به ، ولكن أبوللو يكامه ويحنو به ويذهب عنه الروع الذي يضنيه

— « ليفرخ روعك يا أورست فأنا ربك وحارسك وسأظل آخر الدهر معك ... قريباً منك أو بعيداً عنك ... ترانى أو لا ترانى ... دائماً معك ... دائما ... وسأكون أعدى أعداء من عاداك ... حتى ولو كان من أعدائك هؤلاء الجرجون اللائي ترى ... فانه لن يصل اليك منهن ضر ، ولن يصيبك منهن أذى ... فانى قد ألقيت عليهن غفوة ، وأسكرت مقلهن بخمرة الكرى ، فهن في سبات عميق حتى تكون بنجوة منهن ... الشريرات عدوات الآلهة والناس أجمعين ... »

ويهدأ أورست قليلا ، لأنه ينظر فيرى إلى الجرجون ساكنات نائمات كا أخبر الاله ، ويصل أبوللو حديثه فيقول : « ... وليس عليك إلا أن تنطلق من فورك هذا فلا تلوى على شيء حتى تكون في معبد مينرڤا فاسجد تحت قدميها سجدة تستجمع فيها نفسك وقلبك وآلامك . ثم تبثها شكواك وتتوسل إليها أن تأذن فتحكم بينك وبين الزبانيات ، ربات الذعر ، هذه الجرجون ؛ ولا تخش عقدة في لسانك فسأكون إلى جانبك ، وسأنافح عنك وأشد أزرك ، ولن يؤودنى أن أضع عنك هذا الوزر الذي يثقلك ، مادمت أنا الذي أمرتك أن تقتل أمك الفاسقة ... وستنطلق الجرجون في إثرك ، فاذا أدركنك فلا يروعنك أن يأخذنك فيلببنك تلبيبا ، ثم لا يروعنك أن يتواثبن بك فوق الآكام ويسحبنك فوق النؤى ويطوحن بك فوق البحر اللجي ... فانك واصل باذنى ، وعلى عينى إلى حيث ألقاك في معبد مينرڤا »

فيكفكف أورست عبرته ويقول : « تباركت ياسيد الشمس وتقدست أسماؤك ، ولاغفلت عينك الساهرة عن عبدك المذنب ... ولا زالت تدركني برحمتك يا أرحم الراحمين ! »

فيجيبه أبوللو : « ولا زلت أوصيك بالتجمل والصبر ، فلا تقذف بالروع في قلبك ، ولا تدع الذعر إلى روحك سبيلا ، وسأوصى بك أخى هرمز ، حامل الأرواح إلى ظلال هيدز ، عهد لك ، ويوطئ سبيلك حتى تكون في مُتوجَّهك »

ثم يرف أبوللو فيكون في السماء ... ويخرج أورست.

— ٣ —

وتنعقد سحابة في جو الصومعة ، ثم تنكشف عن شبح قائم سادر ، هو شبح كليتمنسترا . وكأن نوم الجورجون يشدهه فيقول :

— « ياهياه ! يا هياه ! هَيا ! هَيا ! جورجون ! غطيط ! تنامين وأذرع الظلمات مفضوحة عن قلبى ! انهضن يا ربات ! إنهم يصرخون في وجهى : مجرمة ! آثمة ! أنا ؟ أنا مجرمة وقد قتلنى ابنى الذى حملته وغذوته ؟ ... ما شغلكن إذن إذا نمتن عن هذا الوزر ؟ ألم أكن أقرب لكن القرابين وأضحى الأضحيات من خمر كلما غول في دجنّة الليل ؟ ! أفهكذا تضيع إضحياتى عندكن وينجو قاتلى دون أن تمسكن به ؟ إنهضْن ! إنهضن فحسبكن ما ألم بكن من كرى ! إنهضن فقد لاذ بالفرار قاتلي غير مبال بكن ؟ أنا كليتمنسترا ؟ أهتف بكن يا ربات الظلمات ! أنا ... القتيلة التي يسبح ظلها في مملكة الأحلام ! »

— « خيخ ! ... خيخ ... ! خيخ ... ! خيخ ... ! »

— « خيخ ؟ ... ماهذا الفخيخ[1] يا ربات ؟ إنه يضطرب في حلوقكن فيكون شخيرا ، ثم يرتد في أنوفكن فيكون نخيراً ! هَيا ! لقد أفلت قاتلى ! ولدى ! لقد كلأته قدرة سماوية بينما أنا مهجورة هنا ! »

— « غيط ... خيخ ... ! ... غيـ ... »

— « غيط ! ماهذا الغطيط وقد انفلت قاتلى ! ما أنتن هنا ؟ أورست ابنى .. أطلق ساقيه الريح يا ربات ، فمن غيركن يأخذه بقتلتى ؟ »

— « أو ... ه ... »

— « أوه ؟ هَيا ! البدارَ البدار ! يا للضنى ! »

— « أو ... ه ... »

— « حتى النوم والتعب يشدان أزر المتآمرين ! »

— « خـ ... خ ... (وتستيقظ الجورجون) أمسكن !

(١) صوت النائم

أمسكن ! مِن هنا ! من هناك ! حذار ! »

— « آى ! أنتن تتصيدن المجرم فى شبكة من أحلامكن ! وما تبرحن متثائبات ! يا للعار ؟ إنهضن يا ربات ولا تستلن لهذا الخمول ! بحسب قلوبكن وخزة من ضمير حتى لو يستيقظ ! هَيّاً هَيا ! أفصصْن أثره ! وليتزع شِواه زفير من جحيم أنفاسكن هيا هيا ! ! »

(ويغيب الشبح)

— ٤ —

وتنهض الجورجون فيروعهن ألا تجدن أورست وقد طاردنه طويلا ، وكدن يبطشن به لولا احتماؤه بصومعة أپوللو . . . ويبرمن ويتسخطن ... ويشتد غضبهن على أپوللو نفسه ، لأنهن يفطن إلى أنه هو الذى ألقى عليهن هذا النعاس الذى صرفهن عن واجبهن ... « غير مبال أن تخرق قانون الآلهة ، ولا مبال أن يتلطخ وحيدك بالاثم والدم ، كأنك تتحــدى ربات المقادر[1] ... ولكن هيهات ! هيهات أن تستطيع حماية هذا الآثم الذى يلوذ بك . . . فانك ستشهده بعينيك يتلظى فى حر جهنم ... وستضاعف حمايتك العمياء له عذابه ... ... »

وما يكدن يفرغن من برمهن ، ويعسكن عن قولة السوء التى أرسلنها ، حتى يبدو طيف أپوللو :

— « .... أغربن أغربن ! آمركن ألا تبقين فى صومعتى ! هَلاّ ! وإلا فستبيدكن نفثات الثعبان الذى يتحوى فى قوسى ! الأرقم ! أتجهلنه ؟ أغربن يا سبب شقاء الناس ونافثات السم فى جراح البرايا ! لا تنتهكن هذا الحرم المقدس الأطهر بظلالكن البشعة ، النكراء ! أغربن من هنا ، وتبشرن بالموت والأرزاء فى سبل الشباب الذى تذوين ، والحيوات التى تشقين والأنفاس البريئة التى تحشرجن فى صدور الأطفال ...! بحسبكن أنين الموتى ، وجؤار القتلى ، وسكرة الموت ؛ تخضض المفجوعين والمفئودين ! أغربن من هنا .... وليكن مأواكن فى مغارة ذئب أو كهف سبع ينهش فريسته التى ما تزال تئن وتتوجع ... فصومعتى أطهر من أن تدنسها أدرانكن ! أغربن قاتلكن ، فما انفكت لعنة السماء عليكن وغضب الآلهة والناس أجمعين ! هيا ... هيا ... يا هناه ! »

(١) Fates الربات ثلاث كلوتو ولاخسيز ، وأتروبوس اللائى يكتبن على الناس كل ما يقع لهم فى الحياة

— « أيها الاله أپوللو ! إصغ الينا وع ! أنت لم تكن شريك هذا المجرم الذى حميت فى وزره فقط (حين قتل أمه) ولكنك كنت الآمر الموحى ؛ فعليك يقع الجرم كله ... »

— « وما برهانكن ؟ هراء ... هراء .... »

— « نبوءتك التى أوحيت بها .... تقضى أن يقتل الغلام أمه ! ! »

« لقد صرحت ، غير متردد ، لا بد أن يثأر الفتى لأبيه ! »

— « وها قد تقبلت الغلام ، وما انفك الدم يقطر من يديه ! »

— « لا .... ولكنى أمرته أن يستغفر لذنبه هنا ! »

— « ولكنه لم يأت ليستغفر ، بل أتى يلوم ويعتب ويدل ... يعتب عليك ويدلك يا حاميه ! ؟ »

— « وأنتن ؟ ماذا جاء بكن وأنتن غير جديرات بأن تقربن قدسى ! ! »

— وظيفتنا يا سيد الشمس ! هذا عملنا الذى ارتضيناه يوم اقتسم الآلهة شؤون الحياتين ! »

— « ماذا ؟ عملكن ؟ وما عملكن يا ربات الذعر ؟ »

— « أن نقتص آثار قتلة الآباء وننفيهم من الأرض ! »

— وماذا تصنعن بمن يقتلن أزواجهن من النساء ؟ »

— « هذا دم لا يعنينا لأنه من دماء ذوى القربى ، فلا شأن لنا به ! ! »

— « بعدتُن عن الشرف والنبل اذن ، وعن العدالة كذلك ! ان ذلك ينافى القداسة الزوجية التى تقر بها هيرا لزوجها زيوس سيد الأولمب ، وينافى ماقضت به ربة الحب[1] من وجوب الوفاق والمحبة بين الزوجين ... إن العلاقة بين الزوج وزوجه أكبر من أن تكون قسما أقسماه ! فاذا حدث أن قتل أحدهما الآخر ولم يثر ثائركن لهذا القتل فمن يأخذ المجرم بجرمه ؟ وماذا تكون الحياة إذا لم يكن فيها قصاص ؟ ! إنكن إذن لظالمات دون أورست ظالمات ! ! فبينا تأخذن بالشدة والعنف مجرماً لا نقم عليه — فى الحق — جريرة ما صنع ، اذا أنتن تتغاضين عن مجرمين ضجت الدنيا بآثامهم وتلطخت الفضيلة بأوزارهم ، فلكن كيف تقضين ؟ ! وليكن الأمر ما يكون ، فسيعرض الأمر كله على منيرفا لترى فيه رأيها ! »

(١) لا ندرى أى ربة حب يعنى أسخيلوس ؟ فاذا كان يعنى فينوس فذلك يتعارض وحياتها الملئة بالفسق ضد زوجها فلكان !!

لما أتم المركيز خطابه وأعلن رأيه ، انحدرت الأنظار إلى الطبيب تنتظر منه الحكم الأخير . قال :

— أنا لا أخالف المركيز فى رأيه ، فالهوى تتعدد فصوله وتتابع طوارئه على الفؤاد . غير أنى عرفت فيما عرفت هوى دام خمساً وخمسين سنة ، وما خمدت ناره ولا انطفأ أواره إلا بالموت

قال المركيز وهو يفرك يديه :

— ترى أهذا الحب محمود ؟ وما وراءه من أمان وأحلام ؟ وأى سعادة فى أن يعيش المرء خمساً وخمسين سنة على غرام واحد ؟

فابتسم الطبيب ابتسامة خفيفة وهو ينظر الى المركيزة :

— ان الشخص الذى أتاح له القدر أن يكون معشوقاً طوال هذه المدة كان رجلا وأنتم تعرفونه جميعاً ، هو السيد شوكه صيدلى الناحية . أما المرأة العاشقة فلستم تجهلونها أيضاً ، هى صانعة الكراسى العجوز التى كانت تفد أحياناً إلى القصر ها هنا :

بدت على وجوه النسوة ملامح الدهش ودلائل الاشمئزاز ، كأنما الحب لا ينبغى أن يصيب فيما يصيب إلا المخلوقات المترفة المتميزة التى تستحق وحدها أن يبدى الناس لها عطفا واهتماماً

قال الطبيب :

— منذ ثلاثة شهور دعيت إلى جانب هذه العجوز وهى على فراش الموت ، وكانت قدمت فى عربتها التى اتخذتها مسكناً لها وآلة ركوب تطوف البلدان عليها . يجر هذه العربة فرس مهزول ناحل لاشك أنكم رأيتموه . ويصحب العجوز كلبان أسودان هما صديقاها وحارساها . كانت دعت القسيس أيضاً لتكشف لنا عن رغباتها الأخيرة فنكون منفذين لوصيتها . فقصت علينا جميع أطوار حياتها . الحق اننى لم أسمع قصة أشد تأثيراً فى النفس وأكثر غرابة فى الأذن من قصتها . كانت حرفة والديها صنع الكراسى . ولم يكن لها سكن خاص فى أرض معينة ، فانها طفلة كانت تطوف البلدان ممزقة الثياب مختلة الجسم يثير منظرها نفوراً واشمئزازاً . وكان أبواها كلما بلغا إحدى القرى وقفا عند مدخلها وأنشآ يصلحان الكراسى العتيقة والمقاعد القديمة تحت ظل الأشجار وهى تتدحرج لاعبة ضاحكة خلال أعواد العشب المشرئبة . فاذا ابتعدت قليلا عنهما أو أخذت فى الحوار مع الصبية ، فانها لا تلبث أن تسمع صوت أبيها المغضب يقول لها : « ارجعى ياوقحة » . فكانت هذه الجملة ، الجملة الوحيدة التى تسمعها من أبيها

ولما ترعرعت بعض الشيء أرسلاها تلتقط أو تبتاع ما فسد من المقاعد . فكانت فى تنقلها من مكان إلى مكان تتعرف إلى الصبيان وتأنس إلى الحديث اليهم . على أن ذويهم كثيراً ماصدوهم عنها وهم ينتهرونهم أشد الانتهار ، ومنهم من كان يقول لولده : « ألا انقطعن الكلام مع هذه الشريدة الحافية الأقدام »

أما الفتية الصغار فما أكثر ما قذفوها بالحجارة من غير أن ينبس فوها بكلام ! وكان بعض النسوة أعطينها قليلا من دراهم ، فاحتفظت بها وحرصت عليها

وبينما كانت تجوز هذا البلد فى أحد الأيام وقد بلغت الخامسة عشر ربيعاً من عمرها ، إذ صادفت خلف المقبرة شوكه الصغير وهو يبكى أحر البكاء ، لأن رفيقاً له سرقه درهمين . فآلمها وهى البنت المسكينة ، أن ترى طفلاً حضرياً يذرف دموعاً سخينة من حيث لا مواسى له ولا صديق . فدنت منه وما كادت تقف على سر بكائه حتى وضعت فى يديه تلك الدراهم القليلة التى احتفظت بها . وكان طبيعياً أن يبتهج الطفل بالدراهم فأخذها ومسح دموعه . وكان منها أن جنت فرحاً بعمله ، فأنشأت تعانقه وتضمه إلى صدرها وتقبله تقبيلاً حاراً دون أن يمانع الولد أو يصدها عنه لأنه كان لاهياً بفحص النقود

ثم انصرفت عنه وقد فاض قلبها محبة لهذا الطفل

ولم يكن أحد يعلم ماذا جال فى رأس هذه التاعسة من خواطر وأحلام ، أتعلقت به لأنها ضحت فى سبيله بثروتها المتجمعة من التشرد والانتقال ، أم لأنها منحته أول قبلة وثب قلبها لها ؟

خفى ذلك على الصغار والكبار

وظلت أشهراً تتمثل فى خاطرها زاوية المقبرة التى شهدت فيها هذا الغلام وشرعت تسرق أبويها ما تصل إليه يدها من دراهم أملاً فى لقائه ومصادفته . وكان فى يدها آخر الأمر فرنكان . على أنها هذه المرة بدلاً من أن تلمح فتاها فى محل منزل ، رأته خلف قضبان حانوت أبيه : بهى الطلعة نظيف الثياب ، والقنانى

الحمراء والخضراء والصفراء تحيط به من كل جانب . فازدادت له حباً وبه كلفاً ، وبهرها ما أنفق لديه من مجد باذخ في هذه المياه المصبوغة ، ومن جلال ظاهر في هذه الزجاجات البراقة

فاحتفظ خاطرها بذكراه مدة ، حتى صادفته في السنة التالية خلف المدرسة يلعب مع رفاقه ، فهجمت عليه وقبلته تقبيلاً عنيفاً ريع له الولد وأخذ في الصراخ . لكنها سرعان ما وضعت في يده ثلاثة فرنكات هش لها الغلام وطرب ، وحملق في وجهها في دهش وتعجب تاركا نفسه لها تداعبه ما رغبت في المداعبة ، تعانقه ما اشتهت من عناق

وظلت أربع سنوات تقدم اليه ما تجمعه فيأخذه منها مقدماً اليها القبلات عن رضى وسرور . أعطته مرة فرنكين ومرة خمسة فرنكات ، وهي قطعة كبيرة جعلته يضحك لها ويرقص طربا

لم تكن تفكر إلا فيه ؛ أما هو فكان ينتظر عودتها ويرقب شخوصها اليه بصبر فارغ وشوق لجوج ، حتى إذا أبصرها ، جرى اليها مسلماً خده لقبلاتها ، ويده لدراهمها . وما أشد خفقان قلبها عند ذاك !

وتوارى الغلام حقبة من الزمن عن عيانها لأنه انتقل الى مدرسة أخرى . وعرفت هي انتقاله بمهارة وحذق ، فأبلت في السياسة بلاء حسناً حتى حملت أبويها على المرور من هنا في الصيف . وكان مضى عليها سنتان دون أن تراه . فلما أبصرته كادت لا تعرفه . لأنها رأت أمامها بدلا من طفل الأمس فتى تفتحت ورود الصبا في وجهه ، وابتسمت زهور اليفاعة في قده

نظرت اليه نظرة شوق ولهف . وكان منه أن تظاهر بعدم رؤيتها ، ثم خطا أمامها ببزته الأنيقة ذات الأزرار الذهبية يملأ صدره زهو وافتخار ، ويعلو رأسه أنفة واستكبار

وانصرفت عنه والدموع تسح من عينيها والزفرات تتصاعد من قلبها . وأصبحت بعد ذاك العهد أليفة أحزان ، وصديقة آلام

وانطوت الأعوام متوارية خلف حجاب الفناء ، وفتاتنا لا تنقطع عن الشخوص كل عام إلى بلده لتراه دون أن تجرؤ هي على تحيته ، ودون أن يتنازل هو بإلقاء نظرة عليها

كانت تهواه بكل جوارحها ، وها كم ما أسرته لي « إن هذا الرجل يا سيدي الطبيب ، الرجلُ الوحيد التي رأته عيناي ، وما علمتُ بعد ذاك إذا كان يعيش في العالم سواه »

ومات أبواها واستمرت في حرفتهما ، وقد صحبت من بعدها بدلا من كلب واحد ، كلبين هائلين يُخشى الدنو منهما

وكان يوم دخلت فيه هذا البلد ، فرأت امرأة في نضارة الصبا وربيع الحياة تصحب شوكه حبيبها ، وقد تأبطت ذراعه وهما يخرجان من الحانوت معا

لقد تزوج إذن شوكه !

وفي مساء اليوم ألفت نفسها في الغدير القائم خلف المحكمة . واتفق أن رجلا كان يمر هناك ، فأنقذها وقادها إلى منزل شوكه ، فنزل هذا لملاقاتها ، ودلك بيديه مكان الألم من جسمها دون أن يتظاهر بمعرفتها . ثم ما لبث أن قال لها بصوت جاف : « أأنت مجنونة ؟ لا ينبغي أن تكوني هكذا حيواناً »

هذه الجملة وحدها بعثت فيها البرء والشفاء . ألم يتكلم اليها ؟ حسبها ذاك ! وظلت هانئة مغتبطة أمداً طويلا

قضت كل حياتها تذكر شوكه ولا تفكر في غيره . وكانت تلمحه في سنيها خلف الزجاج ، وما أكثر ما ابتاعت عقاقيره وأدويته لاتبغي من شرائها إلا رؤيته والحديث اليه

وكما ذكرت لكم بديئاً ، ماتت هذا الربيع وقد رجتني بعد أن قصت عليّ قصتها أن أحمل الى هذا الذي أحبته حب العابد لمعبوده ، جميع ما ادخرته من مال . لأنها كما اعترفت لم تشتغل إلا لأجله ، تجوع أحياناً لتدخر له بعض المال . فانْ ذكرها بعد وفاتها مرة واحدة فستشعر في قبرها بالسعادة والهناءة

أعطتني عشرين وثلاثمائة وألفين من الفرنكات . فقدمت العشرين فرنكا الى القسيس لأجل دفنها ، وأخذت الباقي لما فاضت روحها ، وقصدت منزل شوكه ، فلما دخلت كان وزوجه يتناولان طعام الغداء وقد جلس الواحد أمام رفيقه ، والاحمرار يكسو وجهيهما ، والسعادة تسبل عليهما ظلها الوارف وبشرها الطافح . طلبا إليّ الجلوس فجلست ، وقدما لي كوباً من مشروب (الكيرسك) (١) فتناولته شاكراً وبدأت أنقل لهما القصة بصوت مضطرب حزين ، لأني زعمت أنهما سيبكيان ويحزنان ، على أن شوكه ما كاد يفهم أن هذه الأفاقة الشريدة تضمر له حباً

(١) Kirsck يصنع هذا المشروب من عصير الكرز

وولاء حتى جن جنونه وثارت ثائرته وشرع يثب من السخط والغضب كأنما سلبته المسكينة من المجد والشهرة ، ومن العزة والشرف شيئاً كثيرا . أما زوجه فكانت تصيح والغيظ علؤها « يالها من نذلة ! يالها من نذلة ! »

ثم نهض شوكه وألقى بقبعته على الوسادة وأخذ يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً كأنه أحد المجاذيب وكان يتمتم : « أو عمكن هذا يا دكتور ؟ إن ذا لشيء فظيع ! ما العمل ؟ يا ليتني عرفت الأمر فى حياتها ! فلكنت أسوقها سوقاً إلى السجن بقوة الدرك »

فلبثت أنا كالمشدوه مما سمعته أذناى ورأته عيناى لا أدرى ماينبغى لى من قول ومن عمل . على أننى عقبت كلامى : « سيدى إنها أوعزت إلىّ أن أحمل اليك ما تركته من نقود ، وقدرها ثلثمائة وألفان من الفرنكات . ولما كان ما نقلته لك من حديثها قد أثار فيك سخطاً وسوءاً ، فلعل من الخير أن نهب النقود بعض الفقراء والمساكين »

نظرا وقد أفقدتهما الحيرة كل حركة !

فأخرجت المال من محفظتى ، هذا المال المتجمع من بلدان عديدة والمدّخر من جميع النقود من ذهب وفضة وغيرها . وسألته قائلا : « ماذا عزمت؟ »

قالت السيدة شوكه : « ما دامت رغبة المحتضرة الأخيرة تقضى بذلك . فأرى من الصعوبة رفض إرادتها »

وقال الزوج واحمرار الخجل باد عليه : « إن هذا المال ينفعنا فى اقتناء بعض الحاجات لأطفالنا »

قلت عند ذلك بصوت جاف : « كما تشاء »

قال : « هاته ما دامت أوعزت اليك ذلك . فلن تعوزنا الوسيلة فى إنفاقه إنفاقاً جيلا »

فقدمت اليهما الدراهم وصافحتهما وانصرفت

وجاءنى شوكه فى غد اليوم ، وابتدرنى قائلا : « هذه المرأة تركت عربتها ، ماذا فعلت بها ؟ » . قلت :

— لا شيء ، خذها إذا أردت . قال :

— إنها تنفعنى ؛ سأجعل منها كوخاً لحديقتى

وهم بالانصراف فناديته قائلا : « إنها تركت أيضاً فرسها وكلبيها ، ألا تريدها ؟ فوقف مندهشاً وقال : « آه ! كلا ، لا حاجة بى اليها ، ما أصنع بها؟ خذها أنت . » وأخذ يضحك ومد يده إلىّ فصافحته بمودة ، إذ لا ينبغى للطبيب والصيدلى أن يكونا عدوين

احتفظت بالكلبين ، أما الفرس فقدمته إلى القسيس ، وأفاد شوكه من العربة كوخاً لحديقته ، وابتاع بالنقود خمسة أسهم فى الخط الحديدى

هذا هو يا سادتى الحب العميق المحض الذى صادفته فى حياتى وصمت الطبيب

فأخرجت المركيزة من صدرها آهة حبيسة ، وقالت والدموع تتلألأ فى عينيها :

« الحق أن النساء وحدهن يعرفن الحب ! »

(حلب) فؤاد نور الدين



البريد الأدبي

الأرحام المبلولة

أنكر علينا الدكتور زكي مبارك في (البلاغ) قولنا في افتتاحية العدد ١٣٩ من الرسالة: « وأيبست الأرحام المبلولة »، وظن أن الذي ورطنا في وصف هذا الموصوف بهذه الصفة إنما هو حرصنا على هذه السجعة التافهة! ومعاذ الله أن نكره كلمة على غير موضعها طمعاً في زينة لفظية نعتقد أن خصيصة الجمال فيها جريانها مع الطبع والصدق

لعل إنكار الأستاذ أن يكون آتياً من إحدى جهتين: إما استعمال اللغة وإما مراعاة الذوق. فأما اللغة فحسبنا أن نورد هنا ما ذكره (لسان العرب) ولا نزيد عليه. قال في مادة (بلل) « ... وبل رحمه يبلها بلا وبلالا: وصلها. وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: بلوا أرحامكم ولو بالسلام، أي ندّوها بالصلة. قال ابن الأثير: وهم يطلقون النداوة على الصلة كما يطلقون اليبس على القطيعة، لأنهم لما رأوا بعض الأشياء يتصل ويختلط بالنداوة، ويحصل بينها التجافي والتفرق باليبس، استعاروا البل لمعنى الوصل، واليبس لمعنى القطيعة، ومنه الحديث: فان لكم رحماً سأبلها ببلالها: أي أصلكم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئاً... أبو عمرو وغيره: بلت رحمي أبلها بلا وبلالا: وصلتها ونديتها. قال الأعشى:

أما لطالب نعمة تممتها ووصال رحم قد بردت بلالها

وقال الشاعر:

والرحم فابللها بخير البُلان فانها اشتقت من اسم الرحمن

وأما الذوق فهناك ذوقان: ذوق أبناء العرب، وذوق (أبناء البلد)، فأما ذوق أبناء العرب فقد رأيت حكمه في هذا الاستعمال من وروده في الحديث والشعر، وتسجيله في معاجم اللغة وكتب الأدب؛ وأما ذوق (أبناء البلد) فقد يجد فيه شيئاً، ولكنه الشيء الذي يجده العامي في مثل قول الله تعالى: (آتوني زبر الحديد) أو في مثل قول الشاعر: « ومن يك » ومثل هذا الذوق العابث ينبغي أن نراعيه إلى حد ما؛ وإلا ذهب كلام الناس كله هزؤاً بين (نكتة) و (قافية)

كلمة قصيرة اختلستها من المرض اللازم يا دكتور فمعذرة

الزيات

الحركة الأدبية

حفلت القاهرة في الأيام الأخيرة بمجالس العلم والأدب، فكأنها سوق من أسواق الكلام التاريخية في أزهى عهوده وأحفل أيامه، فأنت لا تنفك آخر النهار وأول الليل تسمع أبلغ الخطب وأجود القصائد وأنفس المحاضرات في حفلات الترحيب وموائد التكريم وقاعات الثقافة، وقد كان لوفود اخواننا الفلسطينيين والعراقيين أثر قوي في هذه الحركة. ولقد قام (أسبوع المتنبي) الذي أعدته الجامعة المصرية في المكان والأزمان التي أعلناها من قبل، وكان ما سمعناه إلى اليوم من المحاضرات التي ألقيت فيه فخراً لكلية الآداب تستحق عليه التهنئة؛ وعسى أن يساعدنا التوفيق فنثبت شيئاً منها في أعدادنا المقبلة

مديرية أسوان

قرأت في عدد الرسالة ١٣٩ نقدا على بعض ما جاء في مقالي عن مديرية أسوان يدور

(١) على أن بلاد (بنت) هي في آسيا من بلاد الفينيقيين. وهذا خطأ، والصواب أنها كما ذكرت في أفريقيا، وموضعها الآن المنطقة المعروفة بالصومال الفرنسي والأريترية؛ وقد بينها الأستاذ برستد على الخريطة في كتابه aneieut times صفحة ١٠٢

(٢) اعترض على كلمة (اثيوبيا) اعتراضاً غير وجيه، فان اثيوبيا كلمة يقصد بها الأراضي الواقعة جنوب مصر، وهي كلمة يونانية استعملها هيرودوت، واراتستين، وبطليموس، وبينوها

على خرائطهم . (انظر كتاب الأستاذ كلتى Keltie المسمى Partition of Afriea الفصل الأول وعنوانه The Africa of the ancient

(٣) ذكر أن تسمية الهيكل الموجود بجهة كلابشه منذ عهد رمسيس الثانى باسم بيت الولى خطأ وأن الصواب الوالى ، وقولنا هو الأصح لأن الغرض من الولى هو القديس لاعتبارات تتعلق بتاريخ مصر القديم لايجهلها أحد . والمهم أن يذكر الناقد النص الذى يعتمد عليه ، والمرجع الذى يرجع عليه ، حتى يكون على كلامه مسحة من الثقة . ذلك ما عنانا أن نرد عليه من النقد ، أما ما عدا ذلك فلا قيمة له

رشوان أحمد صادق

ذكرى مأساة غرامية شهيرة

تعنى الأوساط الأدبية الفرنسية دائماً بتتبع الحوادث والذكريات الأدبية ، ومن ذلك ما نوهت به بعض الصحف الأدبية أخيراً من مرور مائة عام كاملة على صدور كتاب لمؤلفه مكانة خاصة فى الأدب الفرنسى . وذلك هو كتاب « اعتراف طفل من أبناء العصر » La Confession d' un enfant du Siécle ؛ لمؤلفه الشاعر الغنائى الأشهر الفرد دى موسيه . وفى هذا الكتاب يعرض الشاعر فصلاً ساحراً محزناً معاً من حياته المنيفة المضطربة ، ذلك هو قصة غرامه مع الكاتبة القصصية الشهيرة جورج ساند ؛ وقد كانت هذه الكاتبة التى تضطرم شغفاً وجوى تهيم فى غمر الحب بلا انقطاع ، وتتقلب تباعاً بين أذرع عشاقها المتوالين ؛ وكان جلهم من كتاب العصر ومفكريه ؛ وكانت قبل هيامها بالشاعر خليلة لجول ساندو الكاتب ، ثم هامت من بعده بالشاعر ميرميه ، ولكن حبهما لم يكن سوى مأساة قصيرة المدى . وفى ذات يوم من أيام ابريل سنة ١٨٣٣ ، كانت جورج ساند تتناول طعام العشاء فى حفل راق ، وكان جارها فتى أنيقاً يحدثها بحرارة عن بعض قصصها ؛ ولم يكن هذا الفتى الأنيق سوى الفرد دى موسيه ؛ وفى نفس المساء هامت جورج ساند بالشاعر الفتى ، وبث اليها جوى يضطرم ؛ ولم تمض أسابيع قلائل حتى غدت صاحبته ، وغدت باريس بأسرها تتحدث بهذا الغرام الجديد ؛ وبعد بضعة أشهر سافر العاشقان إلى البندقية ؛ ثم تسربت بعد ذلك عوامل الوهن إلى غرامهما ، وانتهت قصتهما الغرامية المشجية بعد أربعة عشر شهراً فى آلام ومعاناة ، وأوحت هذه المأساة الغرامية إلى الشاعر موضوع كتابه الأشهر « اعتراف طفل من أبناء العصر » . ولم يخطئ أهل العصر فى فهم ما قصد اليه الشاعر وما يعنيه بطريقة مستورة ؛ ولم تحاول جورج ساند يومئذ أن ترد عليه أو تثير حول الموضوع أية مناقشة ، خصوصاً وأن رواية دى موسيه كانت على ما يظهر تصور الحقيقة كما هى ، ولهذا اعتبرت يومئذ هى القول الفصل

ولكن الشاعر لما توفى بعد ذلك فى سنة ١٨٥٠ ، رأت جورج ساند أن تقول كلمتها فى مأساة غرامها ؛ فكتبت كتابها المسمى « هى وهو » Elle et Lui تصحح فيه بعض الوقائع والتفاصيل ، فأثار كتابها يومئذ فضيحة أدبية واجتماعية ؛ ورد عليها بول دى موسيه ولد الشاعر فى كتاب عنوانه « هو وهى » Lni et Elle

ومن ذلك الحين ظهرت عشرات الكتب والقصص عن علائق العاشقين الشهيرين ؛ وأشهر هذه الكتب وأقيمها هو بلا ريب كتاب شارل موراس الكاتب الكبير ومحرر جريدة « لاكسيون فرانسيز » وعنوانه « عشاق البندقية » Les Amants de Venise ؛ ومع ذلك فلم يكن هو الكتاب الفصل فى أمر هذه العلائق الدقيقة بين شخصيتين من أعظم شخصيات القرن التاسع عشر ؛ فقد ظهرت بعد ذلك مكاتبات ووثائق لم تنشر من قبل وفيها حقائق وتفاصيل جديدة تلقى ضياء جديدا على تلك المأساة الغرامية الشهيرة .

بيد أنه مما يلفت النظر أن هذه المكاتبات والوثائق الجديدة تؤيد رواية دى موسيه فى مجموعها ، وأن جورج ساند قد عمدت قصداً إلى تغيير بعض الحقائق والتفاصيل فى كتابها « هى وهو »

مؤسس الأدب اليهودى الشعبى

تحتفل الدوائر اليهودية الأدبية بذكرى أديب يهودى كبير هو منديل سفوريم مؤسس الأدب اليهودى الشعبى (Yidfish) وقد ولد هذا الأديب فى إحدى بلاد لتوانيا منذ مائة عام كاملة فى سنة ١٨٣٦ ؛ واسمه الحقيقى هو شولم يعقوب ابراموفتش ؛ ودرس الأدب والعلوم قراءة لأنه لم يظفر بتربية مدرسية منظمة ؛

وكان الشعب اليهودي يعيش يومئذ في روسيا في ظل طغيان مطبق ويعاني أمر ضروب الاضطهاد والزراية والفاقة؛ وكانت قد ألفت في ذلك الوقت جمعية من الشباب اليهودي المتنور تسمى «مسكليم» أعني الطلائع المثقفة وغرضها أن تعمل لادخال الأفكار والمدنية الغربية الى طوائف الشعب اليهودي التي مازالت تعيش في ظل تقاليدها العتيقة؛ فانضم منديل سفوريم إليهم؛ وكان الكتاب اليهود يكتبون يومئذ إما بالروسية وإما بالعبرية، فسار منديل في أثرهم وأصدر أول كتبه بالعبرية، ولكنه لاحظ أن سواد الشعب اليهودي يتحدث باللغة اليهودية (Yiffish)، وهي مزيج شعبي من الألمانية المحرفة وعناصر أخرى عبرية وروسية وغيرها، ورأى أن غزو أذهان هذا الشعب لا يكون إلا بمخاطبته بلغته الأصيلة؛ عندئذ فكر منديل في الكتابة باليهودية؛ وكان عملا شاقا لأن هذه اللغة لم تكن لها أصول نحوية أو لغوية، وإنما كانت لغة الحديث الطائر. ولكن منديل كان فنانا ذا مواهب ممتازة، فاستطاع أن يخرج من هذه اللغة الشعبية لغة أدبية تصلح للكتابة والقراءة؛ وكتب فعلا باليهودية لأول مرة؛ ووصف للشعب اليهودي حياته المظلمة العتيقة، وذلته الخالدة، وبؤسه المطبق؛ وأخذ يبث اليه روح النهوض والتحرر، وذلك في روايات شعبية جذابة. ولم يستطع كاتب يهودي غير منديل أن يصف نقائص أمته بمثل قوته وجرأته ودقته، فقد وصف طوائف الشعب اليهودي، الأغنياء والفقراء ورجال الدين والمفكرين وصفا قويا، ولم يخف نقيصة أو مأخذا، بل كان شديد الوطأة عليهم جميعاً، لا يذلله ويستدر شفقته سوى بؤس الشعب اليهودي

ولمنديل سفوريم عدة قصص شهيرة منها «الفرس» «رحلة بنيامين» «تروا» «خاتم السعادة» وفيها يصف المجتمع اليهودي في خلال القرن التاسع عشر في مختلف صوره؛ وفي قوة وصراحة لم تعرفا من قبل؛ ومن الغريب أنه استطاع أن يجعل من هذه اللغة اليهودية المبعثرة أداة قوية فصيحة للتعبير الحي؛ وأن يقود الطريق لجعلها لغة أدب يهودي جديد؛ وقد سار في أثره عدة من أكابر الكتاب اليهود في القرن التاسع عشر فكتبوا باليهودية، التي غدت في يومنا لغة أدب يهودي جديد

وتوفي منديل سفوريم في سنة ١٩١٧ وقد أربى على الثمانين بعد أن توطدت دعائم الأدب اليهودي الجديد الذي كان أول من وضع دعامته الأولى

وداع الحرية

يجد المؤرخ والقصصي معاً مادة بديعة في مصرع يوليوس قيصر؛ فقد كان حادثاً من أنبل وأعظم حوادث التاريخ، وكان بأدواره وتفاصيله قصة ساحرة. وقد صدرت أخيرا بالانكليزية قصة عنوانها «وداع الحرية Freefon Farewell» للكاتبة الانكليزية فيليس بنتلي، وهي قصة تاريخية رائعة، تستعرض فيها المؤلفة حياة قيصر ومجده الباذخ ومصرعه المفجع. وتصف لنا مس بنتلي خلال قصتها طائفة من الشخصيات الرومانية الشهيرة التي عاشت حول قيصر، وصادقته أو ناهضت مجده مثل بومبي، وكاتو، وكراسوس، ثم بروتوس قاتل قيصر. ولم تجد الكاتبة أمامها كبير مجال للتوغل في ميدان الخيال، ذلك أنها إنما تعرض عصرا بحوادثه وأطواره، وتجد مادة غزيرة في التفاصيل التاريخية الكثيرة التي تقدمها الينا الروايات المعاصرة والتواريخ القديمة. بيد أنها تجد أمامها مادة للحديث عن الأوتوقراطية، والديموقراطية؛ وهي تحمل ما استطاعت على الأوتوقراطية وجميع مظاهرها وتمجد الحرية والديموقراطية؛ على أنها لا تجد ما تقوله في مديح تلك الديموقراطية الرومانية التي مات في سبيلها قيصر واتخذ اتهامها ذريعة لاغتياله. ونحن نذكر أن بروتوس وزملاءه المؤتمرين بحياة قيصر كانوا يعملون باسم الديموقراطية، ويتخذون من بعض مظاهر قيصر وتصرفاته حجة عليه بأنه يجنح الى الامبراطورية والحكم المطلق. وقصة مس بنتلي حسنة السبك من هذه الناحية، بيد أنه يمكن من جهة أخرى أن يقال إنها لم تقدم الينا جديداً في الاستعراض أو الوصف، لأنها إنما تقتصر على الشخصيات والحوادث التاريخية الجافة. وهذا عيب نلمسه أحياناً في كثير من القصص التاريخية. ولكن مس بنتلي تقدم الينا على أي حال قصة ممتعة تسحر بروعة أسلوبها